الفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الحركة العلمية

دعا الإسلام أمته في قوة إلى العلم والتعلم، فبمجرد أن اكتسح العرب العراق وإيران والشام ومصر مضوا ينهلون من كل الثقافات والمعارف التي كانت منبثة في هذه البلدان، وأسعفهم في ذلك أنهم عربوا شعوبها وأخذت بنفسها تعرب لهم كل مدخراتها وكنوزها الثقافية، وتجرد بعض العرب لمعرفة اللغات الأجنبية التي كانت تحمل تلك الكنوز والمدخرات، وما ينقضي القرن الثاني الهجري حتى تكون قد دخلت العربية سيول ثقافية وعلمية لا حصر لها، مما مكن العرب أن يتحولوا سريعاً إلى أمة علمية تعنى بكل جوانب العلم الذي كان معروفاً عند الأمم القديمة وخاصة الفرس والهنود والسريان واليونان، وتشارك فيه مشاركة جادة خصبة، وتضيف إليه علوماً جديدة تتصل بالقرآن والشريعة والشعر واللغة والنحو والعروض.

ونشط التعليم حينئذ نشاطاً واسعاً فمن تعليم للناشئة بالكتاتيب إلى تعليم للشباب بالمساجد، وكان الناشئة يبدءون بتعلم الخط والكتابة والقراءة ويحفظون بعض السور القرآنية، ويشدون بعض الأشعار والأمثال، ويدرسون شيئاً من الحساب والسنن والفرائض والنحو والعروض، وعنى معلمو البنات بتحفيظهن القرآن وخاصة سورة النور، على نحو ما صورنا ذلك كله في كتاب العصر العباسي الأول نقلاً عن الجاحظ، وذكر هو وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمي الكتاتيب، ونراه يخصهم برسالة لا تزال منها بقايا بين رسائله المطبوعة على هامش كتاب الكامل للمبرد، وفيها يصور نوادرهم وحماقاتهم المضحكة، ومن حينئذ أصبحت شخصية معلم الكتاب تدور بين الشخصيات الهزلية في أدبنا العربي، ويقول محمد بن حبيب العالم اللغوي المتوفى سنة ٢٤٥: إذا قلت للرجل ما صناعتك ؟ فقال: معلم صبيان فأصفع، يشير إلى حماقته، وكان ينشد:

من علم الصبيان صبوا عقله حتى بني الخلفاء والخلفاء[1]

---

[1] معجم الأدباء لياقوت (طبعة القاهرة) ١١٢/١٨ .

وصبوا عقله: جعلوه مثل عقلهم: عقل الصبيان حمقاً وبلاهة، وكأنما تصيب عقله عدوى من عقولهم لطول ملابسته لهم، وابن حبيب يعمم ذلك حتى فيمن يعلمون أبناء الخلفاء وآباءهم حين كانوا في المهد صغاراً. يقول ابن قتيبة إنهم كانوا يعلمون الصبيان على حسب الهدايا التي كانت تأتيهم من آبائهم[١]، أو بعبارة أدق على حسب الأجور التي كانوا يأخذونها منهم.

وطبيعي ألا تكون حياة معلم الكتاب على هذا النحو رافهة، بل كان كثيراً ما يحف بها الضيق والبؤس على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبي زيد البلخي المتوفى عام ٣٢٢ وكان في بدء حياته معلم كتاب، وقد شكا شكوى مرة حينذاك من حياه[٢] البائسة. وكثير من اللغويين والنحاة قبل أن ينالوا شهرتهم العلمية بدءوا معلمي صبية مثل يعقوب بن السكت المتوفى سنة ٢٤٣، فقد كانت له في مطالع حياته حلقة في درب القنطرة ببغداد يؤدب فيها مع أبيه صبيان العامة[٣]. يخيل إلى الإنسان كأنما أولاد العامة جميعاً كانوا يختلفون إلى الكتاتيب لما أستقر في نفوس آبائهم من ضرورة التعلم وأنه مثل الطعام والشراب لا يمكن الاستغناء عنه، وأن من لم يتعلم في صغره فاته العلم في كبره، ومثلوا العلم في الكبر بالنقش على الماء، وفي الصغر بالنقش على الحجر يثبت ولا يزول أبداً. وكان الأولاد يكتبون في ألواح من الآبنوس أو الخشب، كل على حسب قدرة أبيه المادية، وكان المعلمون يأخذونهم بالتأديب، فيضربونهم أحياناً أو يحبسونهم، حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه.

وكان معلمو أبناء الخاصة أحسن حالاً ومعاشاً من معلمي أبناء العامة، ومع ذلك نرى الجاحظ يأسي لحالهم إذ يقول: "يكون الرجل نحوياً عروضياً وقساماً فرضياً وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راويه للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً، ولو أن رجلاً كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم"[٤] وهذا إنما ينصب على معلمي أبناء الطبقة الوسطى، أما من كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد وكبار رجال الدولة والأعيان وكبار التجار فكانوا يحفظون برواتب كبيرة، فمثلاً يعقوب ابن السكيت الذي بدأ، كما أسلفنا من معلم كتاتيب حين عهد إليه بعض الحكام في تعليم أبنه جعل له راتباً شهرياً خمسمائة درهم وسرعان ما جعلها ألفاً، وأتخذه المتوكل لتعليم والده وأسنى له الراتب وأجزل في العطاء[٥]. ولما أسند محمد بن عبد الله ابن طاهر نائب المتوكل على بغداد

---

[١] عيون الأخبار (طبعة دار الكتب المصرية) ٣٩/٤ .

[٢] معجم الأدباء ٦٥/٣ ، ٨١ .

[٣] تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢٧٣/١٤ .

[٤] البيان والتبين ٤٠٣/١ .

[٥] تاريخ بغداد ٢٧٣/١٤ .

وجماعة من الخلفاء بعدة تعليم أبنه إلى ثعلب الإمام الكوفي النحوي المشهور ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه على مائدته، وفرض له أن يأخذ يومياً خبزاً فاخراً وحلماً كثيراً حين انصرافه إلى منزله وجعله له ألف درهم شهرياً. وقالوا إنه حين مات خلف واحداً وعشرين ألف درهم وألفي دينار وحوانيت أو دكاكين بباب الشام في بغداد فيمتها ثلاثة آلاف دينار[١]، ويقال إن الخاقاني وزير المقتدر أو لم وليمة ضخمة بمناسبة دخول ابن له الكتاب وأعطى المعلم ألف دينار.

ولم تكن هناك مراحل للتعليم مثلنا اليوم، بل كان الكتاب يحل محل تعليمنا الابتدائي والإعدادي، ومن يريد أن يكمل تعمله بعهده يختلف إلى حلقات المساجد، وكانت أشبه بمعاهد عليا، فلم تكن فقط دوراً للعبادة، بل كانت أيضاً دوراً، بل قل جامعات، للعلم والعلماء، إذ كان لكل عالم في كل فرع من فروع العلم حلقة كبرى، يتلحق فيها طلابه من حوله. وكان عادة يستند إلى أسطوانة في المسجد، ثم يملي محاضراته والطلاب يكتبون، وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردد مستمل كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته، وكان العالم لا يغير مكان حلقته الذي اختاره منذ نهض بالتدريس، ويروى أن نفطويه المتوفى سنة ٣٢٣ ظل يملي دروسه في اللغة والنحو بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة وهو جالس إلى أسطوانة بعينها لا يزال مكانه منها[٢]. وكانت أكثر الحلقات طلاباً حلقات المتكلمين والفقهاء، أما المتكلمون فلكثرة ما كان يجري بينهم من مناظرات كان الطلاب يختلفون إليها للفرجة والتعلم، وأما الفقهاء فلأن الإلمام بالفقه كان الوسيلة إلى تولي مناصب الحسبة والشرطة والقضاء والولاية أحياناً. وكان الطلاب يمسكون في أيديهم بالأقلام والأوراق للكتابة وأمامهم محاربهم، وكانوا يعدون بالمئات في بعض الحلقات، ويروي أن الطبري حين سأله الطلاب الحنابلة عن إمامهم ابن حنبل وخلافه مع بعض الفقهاء وأجابهم بأن خلافه لا يعد أو لا يؤبه له رموه بمحابرهم وكانت ألوفاً[٣].

وكانت المساجد حينئذ أشبه بجامعات حرة، فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه بدون أي شرط، منهم من يأخذ الفقه أو الكلام أو الحديث النبوي أو التفسير أو اللغة أو النحو أو الشعر، وكثير منهم كان يأخذ ما عند شيخ، ثم يتحول عنه إلى شيخ آخر أو حلقة أخرى. ويبدو أن بعض علماء النحو واللغة كان يتقاضى من طلابه أجوراً على حسب قدرتهم، ففي أخبار الزجاج أنه رغب في تعلم النحو فلزم حلقة المبرد بجامع بغداد لتعلمه، فسأله أي شيء صناعتك

---

[١] إنباه الرواة للقفطي (طبعة دار الكتب المصرية) ١٤٧/١ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٢٥/٥ .

[٢] معجم الأدباء ٢٥٦/١ .

[٣] معجم الأدباء ٥٨/١٨ .

؟ فأجابه: أخرط الزجاج وكسبى في كل يوم درهم ونصف، وأريد أن تهتم بتعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهماً، وسأظل أعطيك إياه أبد الدهر، فلزمه وعنى بتخريجه، وطلبت منه أسرة معلماً شاباً يعلم أولادهم النحو فسماه لهم، وعلم أولادهم وظل يعطي المبرد في كل شهر ثلاثين درهماً ويزيده بما يقدر عليه[١]. ويبدو أن المبرد كان شحيحاً بعلمه، إذ في تاريخه أن المتوكل والفتح بن خاقان وزيره كانا يجزلان له في العطاء حتى إذا توفيا أجرى عليه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد راتباً شهرياً، ويتوفى فيتابع أخوه عبيد الله الذي خلفه على بغداد إجراء الرواتب عليه، وهو مع ذلك كله لا يتورع عن أن يأخذ من طالب فقير درهماً كل يوم.

على كل حال كان المبرد مثله مثل المحاضرين الكبار بالمساجد ترعاهم الدولة وتفرض لهم رواتب شهرية، وكانوا أنواعاً كثيرة، فمنهم فقهاء ومنهم لغويون ونحاة ومنهم محدثون ومفسرون، ومنهم أدباء يأخذون من كل علم بطرف وعلى أيديهم كان يتخرج الندماء. وكان كل عالم وصاحب فن يأخذ راتبه مع جماعته، وكان منهم من يسلك في جماعات كثيرة، فيأخذ مع كل جماعة الراتب الذي تأخذه، كالزجاج تلميذ المبرد، فقد جعل المعتضد له راتباً في الفقهاء وراتباً الذي تأخذه، كالزجاج تلميذ المبرد، فقد جعل المعضد له راتباً في الفقهاء وراتباً في العلماء وراتباً في الندماء، فبلغ راتبه في الدولة ثلثمائة دينار شهرياً[٢]. وكان الموفق يجري على ثعلب راتباً سنياً[٣]. وكان المقتدر يجري على ابن دريد العالم اللغوي المتوفى سنة ٣٢١ خمسين ديناراً في كل شهر[٤]. وكان أبو الحسن بن الفرات وزير المقتدر يطلق لطلاب الحديث سنوياً عشرين ألف درهم[٥]. وكان القضاة ورجال الحسبة من الفقهاء يتقاضون رواتب كثيرة، حتى ليثرى بعضهم من راتبه ثراء طائلاً، على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي عن إبراهيم بن جابر القاضي بحلب.

ولم يكن الخلفاء العباسيون ووزراؤهم وحدهم الذين عملوا على تنشيط العلم وإعطاء الرواتب الجزيلة للقضاة والعلماء من كل صنف، فقد كان يشركهم في ذلك حكام الولايات، وفي مقدمتهم أسرة الصفاريين حكام سجستان، إذ نرى أبا عبد الله البوشنجي شيخ أهل الحديث بنيسابور المتوفى سنة ٢٩١ بذكر أنه أخذ من تلك الأسرة سبعمائة ألف درهم، ولما دالت دولتهم تحول عنهم إلى السامانيين ببخاري، ففرضوا له راتباً مجزياً[٦]، وقد بعثوا في إمارتهم بتشجيعهم للعلماء

---

[١] معجم الأدباء ١٣١/١ .

[٢] الفهرست ص٩٦ وإنباه الرواة ١٦١/١ .

[٣] معجم الأدباء ١٤١/٥ وإنباه الرواة ١٤٢/١ .

[٤] أنظر ترجمته في ابن خلكان .

[٥] كتاب الوزراء للصابي ص٢٠١ .

[٦] طبقات الشافعية للسبكي ١٩٢/٢ .

نهضة علمية عظيمة، ويروي أن أميرهم إسماعيل بن أحمد الساماني كان يصل محمد بن نصر المروزي أن أميرهم إسماعيل بن أحمد السامني كان يصل محمد بن نصر المروزي إمام المحدثين في دياره المتوفى سنة ٢٩٤ بأربعة آلاف درهم كل سنة، وكان أخوه إسحق يصله بمثلها، كما يصله بمثلها سكان موطنه سمرقند[١]. ولم يكن حكام الولايات ينفقون على علماء ولا يتهم وحدهم، بل كانوا ينفقون أيضاً على كل من ينزل بها من العلماء الوافدين الذين قد يقيمون بها شهراً أو أشهراً، ومن طريف ما يروي من ذلك أن الرحلة في طلب الحديث إلى مصر جمعت بين محمد ابن نصر المروزي آنف الذكر ومحمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري المتوفى سنة ٣١١، ومحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ ومحمد بن هرون الروياني المتوفى سنة ٣٠٧ ولم يبق عندهم ما يقوتهم، فاتفق رأيهم على أن يخرج أحدهم فيسأل لأصحابه الطعام، وإذا هم بالشموع ورسول من قبل وإلى مصر يدق عليهم الباب، وسألهم أين محمد بن نصر فقيل له هو هذا فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ثم قال لهم أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا هو هذا، فأعطاه صرة فيها خمسون ديناراً، وكذلك صنع مع محمد بن إسحق بن خزيمة ومحمد بن هرون الروياني، ثم قال لهم إن الأمير يقسم عليكم إذا نفدت هذه الدنانير أن تبعثوا إليه أحدكم[٢]. على أنه يجب أن نعرف أنه كان هناك مثيرون وراء الولاة والوزراء والخلفاء من أعيان الأمة وأثريائها يمدون العلماء بالمكافآت والأموال الجزيلة بل ربما أمدوا الطلاب تشجيعاً وحثاً على طلب العلم، ويروى أن ابن زرعة قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٠٢ كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني في الفقه الشافعي مائة دينار[٣]. وكان ابن ماسي ينفذ إلى أبي عمر اللغوي المعروف باسم غلام ثعلب من وقت إلى وقت كفايته[٤]، وسنرى في حديثنا عن علوم الأوائل القناطير المقنطرة من الأموال التي كانت تنفق على الأطباء والمترجمين. ولا بد أن نشير هنا إلى أن نفراً من الفقهاء والمحدثين وحتى من القضاة كانوا يأبون أن يأخذوا على عملهم وتعليمهم أجراً، كما مر بنا في الحديث عن زهاد الأمة أمثال إبراهيم الحربي، وكان كثيرون منهم يعيشون من التجارة أو من الوراقة أو من بعض الحرف الصغيرة. غير أن الكثرة الغامرة كانت تعيش من رواتب الدولة، وممن وضعوا أنفسهم موضع الحماة للعلوم والآداب من الوزراء والسراة، وكان كثيراً من يهديهم العلماء والأدباء آثارهم، فيهدونهم بدورهم كثيراً من أموالهم وخير مثل يصور ذلك الجاحظ، فقد أهدى كتابه "الحيوان" إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف دينار، وأهدى

---

[١] السبكي ٢٤٨/٢ .

[٢] السبكي ٢٥١/٢ .

[٣] السبكي ١٩٧/٣ .

[٤] السبكي ١٩٠/٣ .

كتابه "البيان والتبين" إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه أيضاً خمسة آلاف دينار، وأهدى كتابه: "الزرع والنخيل" إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاه مثلهما خمسة آلاف دينار. وكلهم كانوا من كبار رجال الدولة. وصنف للفتح ابن خاقان وزير المتوكل رسالته في فضائل الترك فأجرى عليه راتباً شهرياً من خزانة الدولة[١]. وأمثال الجاحظ كثيرون في كل فن وفي كل علم كانوا ينالون هذه العطايا الجزيلة ويأخذون الرواتب السنية على جهودهم في المحاضرات للطلاب وفي تأليف الكتب وتصنيفها، مما أشعل في نفوس الشباب والناس محبة العلم والعكوف عليه، حتى يعدوا من أهله، وفي شرفة وفضله يقول الجاحظ[٢]:

يطيب العيش إذ تلقى لبيا ... غذاه العلم والرأي المصيب

فيكشف عنك حيرة كل جهل ... وفضل العلم يعرفه الأريب

سقام الحرص ليس له دواء ... وداء الجهل ليس له طبيب

وكانت الطريقة الشائعة في المحاضرات، وخاصة محاضرات المتكلمين والمحدثين واللغويين هي الإملاء، ويعرض السيوطي لإملاء اللغويين حينئذ، فيقول: "أملي ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخم، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة، وأملى أبو محمد القاسم بن الأنباري وولده أبو بكر ما لا يحصى، وطريقهم في الإملاء كطريقة المحدثين سواء، يكتب المستملي أول القائمة: "مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا، ويورد التاريخ، ثم يورد المملي بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسره، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناذ يختاره ... وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي له أمال كثيرة في مجلد ضخم، وكانت وفاته سنة ٣٣٩[٣]". وبلغ من عناية العلماء المملين حينئذ أن كانوا –وخاصة أهل الحديث– يراجعون ما كتبه تلاميذهم، ويكتبون لمن يأنسون منهم القدرة على روايته عنهم شهادة بأنهم أجازوا لهم تلك الرواية، ويسمى ذلك عند المحدثين باسم الإجازة، وهي شهادة قيمة على صحة الرواية[٤]. وقد يسجل التلميذ على نسخته أنها من سماع هذا الشيخ أو ذاك، وقد يسجل أنه قرأها عليه، وقد يسجل له ذلك الشيخ. وكان الشيخ أحياناً يملي عملاً له في بلد، ثم ينتقل إلى بلدة أخرى يمليه مضيفاً إليه أو مهذباً، وكانوا ينصون على ذلك، مثل معجم الجمهرة لابن دريد، إذ نصوا على أنه مختلف النسخ كثير

---

[١] معجم الأدباء ٧٩/١٦ ، ٩٩ وأمال المرتضى (طبعة الحلبي) ١٩٥/١ .

[٢] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبعة إدارة الطباعة المنيرية بمصر) ٥٨/١ .

[٣] المزهر (طبعة الحلبي) ٣١٣/٢ .

[٤] أنظر في أقدم هذه الإجازات كتابنا البحث الأدبي ص١٥٧ .

الزيادة والنقصان، لأنه أملاه مراراً بفارس وببغداد، فلما تعدد الإملاء زاد المعجم ونقص، ويقول ابن النديم أصح النسخ نسخة أبي الفتح بعد الله بن أحمد النحوي، لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه[١]. وتلك هي أعلى مرتبة في تحقيقنا العلمي الحديث للكتب، إذ نراجع مخطوطات الكتاب ونعرضه عليها، ونستخلص منه أصلاً صحيحاً غاية الصحة، وقد اهتدوا مبكرين إلى ذلك يرشدهم نظر علمي سديد. وكان كثير من العلماء حين يملي كتابا ثم يزيد فيه ويضيف يهمل نسخته أو نسخة الأولى، ولا يقر سوى النسخة الأخيرة، على نحو ما يلقانا عند أبي عمرو المطرز، فإنه أملى في سنة ٣٢٦ كتابه الياقوت في اللغة، ثم رأى الزيادة فيه فأملاه على تلاميذه ثانية سنة ٣٢٩، ثم رأى أن يضيف إليه بعض إضافات، فجمع نسخة وعارضها بعضها على بعض سنة ٣٣١ وجعل هذه العرضة الصورة النهائية وأهدر ما سواها من الصور السابقة[٢].

وكان من أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات العلماء في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء في الكلام وفي الفقه وفي اللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التي كان يشتد فيها الخلاف والجدل. وكان الشباب يختلف في المساجد إلى هذه المناظرات، ليتعلم قرع الحجة بالحجة وغلبة الخصم بالحق وبالباطل أحياناً، وتفيض كتب المتكلمين بأخبار هذه المناظرات وكذلك كتب الفقهاء واللغويين والنحاة وكثيراً ما أثيرت في أثناء هذه المحاورات بعض القضايا والمسائل كقضية العش في مجلس المنتصر[٣] وأنواع اللهو والملاهي في مجلس المعتمد[٤].

وكان استخدام الورق في الكتابة وتصنيف الكتب استخداماً عاماً منذ عصر الرشيد عاملاً مهماً في إزدهار الحركة العلمية حينئذ، فقد كانوا يكتبون قبل عصره غالباً في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر في ورق البردي وكانوا يكتبون في ورق الكاغد المستورد من الصين وكان مرتفع الثمن جداً، فنقلوا صناعته إلى بغداد في عصر الرشيد، إذ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكي وزيره مصنعاً للورق، فرخص ثمنه، وانتشرت الكتابة فيه لخفته، وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات، كما كثر الوراقون الذين يعيشون من نسخها، وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها، واختلف إليها لشباب والعلماء لا لشراء الكتب والمؤلفات فحسب، بل ليقرءوا فيها وينهلوا من مصنفاتها، وكانوا يكترونها لذلك ويبيتون فيها يقرءون على المصابيح ويقيدون أو ينسخون ما يشاءون من الأفكار والصحف والرسائل، وعمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة،

---

[١] الفهرست ص٩٧ .

[٢] الفهرست ص١١٩ .

[٣] مروج الذهب ٤/٥٥ .

[٤] مروج الذهب ٤/١٣١ .

إذ أصبحت الكتب والمصنفات تحت أعين الطلاب والشباب وبأيديهم، يتزودون منها كما يريدون أزواداً كانت أيسر وأسهل من التلقي عن الشيوخ والعلماء في المساجد، إذ كانت تجمع لهم مسائل العلم الذي يريدونه وأصوله وفروعه، ويصور ذلك الجاحظ مقارناً بين من يطلب الفقه عن طريق الاختلاف إلى حلقات العلماء ومن يطلبه عن طريق الكتب ودكاكين الوراقين، يقول: "وقد تجد الرجل يطلب الآثار (الحديث) وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لا يعد فقيهاً ولا يجعل قاضياً. فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال، وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان"[١]. وأرواج هذه التجارة حينئذ اتخذ كثير من العلماء المحاضرين بالمساجد وراقين يقيدون إملاءاتهم ويذيعونها في الناس، ويذكر ابن النديم وراقي المبرد إسماعيل بن أحمد الزجاجي وإبراهيم بن محمد الساسي[٢]، ويذكر ياقوت من وراقي الجاحظ زكريا[٣] بن يحيى، ومن حين إلى آخر تلقانا أسماء هؤلاء الوراقين في تراجم العلماء وأخبارهم.

وبجانب الوراقين ودكاكينهم التي كانت تحل حينئذ محل دور النشر والطباعة كانت هناك كتابات يختلف إليها الناس والشباب في كل مكان، ويشيد أبو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ بعناية ملوك الفرس بالمكتبات وما كان بها من كتب مودعة أصناف علوم الأوائل[٤]، وقد ذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول خزانة الحكمة التي شادها ببغداد هرون الرشيد، وأقام عليها يوحنا بن ماسويه لترجمة الكتب الطبية القديمة، وكيف تحول بها المأمون إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً إذ أحلق بها مرصداً ضخماً، ووظف بها كثيرين للترجمة. وقد تأسست مكتبات كثيرة في العصر، منها ما كان عاماً، ومنها ما كان خاصاً، أما العام فعلى رأسه مكتبات المساجد، إذ كان كثير من العلماء يقفون كتبهم عليها ليفيد منها الطلاب، وقلدهم في ذلك السراة. وعنى بعض المثقفين والعلماء ببناء مكتبات عامة يتزود منها الناس أزواداً علمية مختلفة، ومن أشهرها حينئذ مكتبة علي بن يحيى المنجم ندين الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد وكان أديباً مثقفاً ثقافة واسعة كما كان شاعراً، وكانت له ضيعة نفيسة بنى فيها قصراً جليلاً جعله خزانة كتب عظيمة وسماه خزانة الحكمة مشاكلة لخزانة الرشيد والمأمون، وكان الناس يؤمونها من كل بلد، فيقيمون فيها ويعكفون على المصنفات العلمية دارسين، والكتب مبذولة لهم، والنفقة مشتملة عليهم

---

[١] الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٨٧/١ .

[٢] الفهرست ص٩٥ .

[٣] معجم الأدباء ١٠٦/١٦ .

[٤] الفهرست ص٣٤٨ .

من مال علي بن يحيى، فقدم عليها أبو معشر من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن شيئاً ذا بال من النجوم، فقلما رآها هاله أمرها، فأقام بها وأضرب عن الحج، وتعلم فيها علم النجوم وتعمق فيه حتى ألحد كما يقول ياقوت، وحتى كان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً[١]، ويذكر ياقوت أن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الشافعي –من أدباء العصر وعلمائه– أسس مكتبه ملأها بكتب من جميع العلوم والفنون، وقفها على كل طالب للعلم، وكان لا يمنع أحداً من دخولها فهي مفتوحة للجميع، وإذا ألم بها معسر أو بائس فقير صرف له ورق للكتابة فيه وفضه أودراهم لمعاشه. وكانت تفتح في كل يوم، وكان ابن حمدان يجلس في بعض غرفها، ويحاضر قاصديها مملياً عليهم من أشعاره وأشعار غيره وحكايات مستطرفة وشذوراً من الفقه وما يتعلق به[٢]. ولا يكاد يكون هناك عالم أو أريب نابه أو سرى إلا وله مكتبة خاصة تموج بالكتب، وكانوا يوظفون لها بعض الوراقين كما كانوا يجلدونها[٣] ويتفننون في العناية بكتابتها وتجليدها، وكان المانوية شديد الاهتمام بزخرفة كتبهم[٤] يريدون أن يجعلوها تحفاً فنية استمالة للقراء. ويتوقف الجاحظ في كتابه "الحيوان" ليعجب من مكتبة اسحق بن سليمان العباسي وما كانت تزخر به من الكتب والأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر[٥]، وكانت لابن حنبل مكتبة قدرت كتبها باثني عشر حملاً وعدلاً[٦]، أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل المتوفى سنة ٢٤٨ فكانت له خزانة كتب جمعها له على بين يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسناً، وكان يحضر مجلسه فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة[٧]، وكانت لثعلب مكتبة حافلة، قوم خيران الوراق ما يساوى عشرة دنانير منها بثلاثة، ومع ذلك بلغ ثمنها ثلثمائة دينار[٨]، وكذلك كانت لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري مكتبة كبيرة، وسأله بعض أصحابه كم يحفظ منها ؟ قال: "ثلاثة عشر صندوقاً[٩]. ونسوق خبراً يدل على عظم المكتبات الخاصة عند بعض الأفراد، فقد روى الرواة أن أبا عمر غلام ثعلب كان يؤدب ولد القاضي أب عمر محمد بن يوسف فأملى عليه ثلاثين مسألة بشواهدها من كلام العرب واستشهد في تضاعيفها ببيتين

---

[١] معجم الأدباء ١٥٧/١٥ .

[٢] معجم الأدباء ١٩١/٧ .

[٣] رسائل الجاحظ (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص٧٤ .

[٤] الحيوان ٥٥/١ .

[٥] الحيوان ٦٠/١ .

[٦] السبكي ٢٧/٢ .

[٧] معجم الأدباء ١٧٤/١٦ .

[٨] إنباه الرواة ١٤٨/١ .

[٩] معجم الأدباء ٣٠٧/١٨ .

غريبين جداً، فعرضهما القاضي أبو عمر على ابن دريد وابن الأنباري وابن مقسم فلم يعرفوهما ولا عرفوا غالب ما استشهد به من أبيات: وقال ابن دريد: هذا مما ووضعه أبو عمر من عنده. فلما جاء أبو عمر ذكر له القاضي ما قال ابن دريد. فطلب من القاضي أن يحضر له ما في داره من دواوين العرب، فلم يزل يأتيه منها بشاهد لما ذكره بعد شاهد، حتى خرج من الثلاثين مسألة وشواهدها، ثم قال للقاضي: وأما البيتان فإن ثعلباً أنشدناهما وأنت حاضر فكتبتهما في دفترك فطلب القاضي دفتره، فإذا هما فيه[١] وتلك مكتبة قاض كان بها جميع دواوين العرب، ولو لم تحدث هذه القصة لما عرفنا شيئاً عنها، فما بالنا بمكتبات المؤلفين العظام في العصر، وكثير منهم ألف مكتبة ضخمة فلو لم يكن له سوى مؤلفاته لكانت لديه منها خزانة كتب حافلة، ويكفي أن نذكر مثلاً الجاحظ وقد خلف من الكتب العظام وعشرات الرسائل ما يؤلف مكتبة كبيرة. ومما لا ريب فيه أن مكتبته كانت تحتوي المصنفات التي جمع منها المادة اللغوية والأدبية والكلامية لكتبه. ونذكر بجانبه الطبري، وقد أحصى بعض تلاميذه الأوراق التي كتبها وألف منها كتبه، فقال إنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة، وحسب آخرون أوراق كتبه من يوم ولد إلى أن مات فوجدوه كتب كل يوم أربع عشرة ورقة[٢].

ويحس كل من يتعقب الحركة العلمية في العصر كأن سباقاً نشب بين العلماء والعلم، فهم يجدون في طلبه وتحصيله وهم يصارعونه صراعاً متصلاً يريدون أن يذللوه ويقهروه في جميع الميادين. وهو صراع كان يداخله شغف شديد به، كما كان يداخله إيمان بأنه لن يخضع لهم إلا إذا تجردوا له وتوفروا عليه وأمضوا فيه بياض النهار وسواد الليل في غير كلل ولا ملل، بل في حب لا يفوقه حب، ويحدثنا الرواة عن كثيرين عشقوا الكتب أو بعبارة أخرى العلم عشقاً لا يشبه عشق، ويقول أبو هفان: "لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب أكثر من ثلاثة: الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى إنه كان يكترى دكاكين المتوكل، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عودة إليه، وإسماعيل بن اسحق القاضي فإني ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو يقلب كتباً أو ينفضها[٣]".

وهذا الشغف العلمي الشديد هو الذي دفع العلماء إلى الرحلة من بلد بعيد إلى بلد بعيد طلباً للعلم، مهما تجشموا في ذلك من مشاق، فكان اللغويون يرحلون إلى البوادي محتملين ما فيها من شظف العيش وخشونته في سبيل جمع اللغة، وكان الفقهاء يرحلون بدورهم للتتلمذ على أئمتهم،

---

[١] السبكي ٣/١٩١ .

[٢] السبكي ٣/١٢٢ وما بعدها .

[٣] معجم الأدباء ١٦/٧٥ .

ومثلهم العلماء المختلفون في كل فرع من فروع العلم، ومن خير ما يصور ذلك ما رواه ياقوت عن أبي زيد البلخي أحمد ابن سهل من أن نفسه دعته وهو في عنفوان شبابه إلى أن يرحل عن بلخ ويدخل أرض العراق يجثو بين أيدي العلماء ويقتبس منهم العلوم، فتوجه إليها راحلا مع الحاج وأقام بها ثماني سنوات، فطوف البلاد المتاخمة لها، ولقى الكبار والأعيان وتتلمذ لأبي يوسف يعقوب بن إسحق الكندي، وحصل من عنده علوماً جمة، وتعمق في علم الفلسفة، وهجم على أسرار علم التنجيم والهيئة، وبرز في علوم الطب والطبائع وبحث في أصول الدين[١]". وأكبر من شغفوا بالرحلة في العصر المحدثون، لأن الصحابة كانوا قد نزلوا في أمصار العالم الإسلامي من إيران إلى المغرب، وكانوا يروون أحاديث كثيرة عن الرسول حملها عنهم تلاميذهم من التابعين ومن جاءوا بعدهم، فكان في كل مصر أحاديث لا تعرفها الأمصار الأخرى، فرحل مصنفو الحديث وحفاظه في طلبها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ورحلة البخاري من خراسان إلى مدن إيران والعراق والحجاز والشام ومصر مشهورة، ومثله بقية المحدثين الذين جمعوا متفرقات الأحاديث في العالم الإسلامي. وسنرى الرحلة تشيع بين المترجمين إلى بلاد الروم، كما سنراها تشيع بين الجغرافيين ليصفوا ما شاهدوه بأعينهم، وكذلك سنراها تشيع بين المؤرخين من أمثال المسعودي.

ويبدو أن الشغف المفرط بالعلم لم يكن مقصوراً على الطبقات الخاصة من العلماء ومن يبتغون من الطلاب أن يكونوا على شاكلة أساتذتهم المتخصصين، بل كان حظا مشتركاً بين الطبقات العامة، إذ كان العمل مطروحاً في المساجد مباحاً للجميع، وكذلك في المكتبات العامة، ولم يكن هناك كتاب طريق إلا وتعرضه دكاكين الوراقين، ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن من يرجع إلى تراجم العلماء سيجد كثرتهم الغامرة من الطبقة العامة، وتصور ذلك ألقابهم من مثل الحداد والخزاز والقواريري والتمار والقواس والنبال والقلال والعطار والمطرز. وأبعد من ذلك وأعمق أن نجد الجاحظ في رسالته "الرد على النصارى" يشكو من مناقشة العامة للملحدين والزنادقة في آرائهم الضالة، لعدم معرفتهم الدقيقة بتلك الآراء وما يفندها من الأدلة الساطعة، حتى ليقول: "ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد"، وكأن كل فرد من أفراد العامة لعصره كان يظن نفسه نال حظاً أو حظوظاً من مناهج المتكلمين في جدال أصحاب الملل والنحل الضالة. وظاهرة ثانية تدل على مدى تغلغل الثقافة بين جميع أفراد الأمة بلا استثناء، إذ نرى من النساء من يختلفن إلى حلقات المتكلمين[٢] والفقهاء وغيرهم، ويبدو أنه برزت حينئذ في الثقافة الدينية غير امرأة حتى لنرى كما

---

[١] معجم الأدباء ٣/٧٢ .

[٢] أنظر ترجمة الأشعري في ابن خلكان .

مر بنا– قهرمانة لأم المقتدر، هي تمل، تجلس في سنة ٣٠٦ لمساع المظالم والحكم بين المتظالمين ويجلس معها القضاة والعلماء، واختلف الفقهاء حينئذ في جواز والية المرأة للقضاة، وأجاز ذلك الطبري[١]، وهي فتوى تدل على ما بلغته المرأة من التعمق في الفقه وعلوم الشريعة لهذا العصر، ولابن بسام المتوفى سنة ٣٠٣ أبيات يقول فيها[٢]:

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطاب

وقد يدل البيت على أن من النساء حينئذ من كن يطالبن بمساواة المرأة بالرجل في الوظائف المهمة مثل كتابة الدواوين وولاية الأقاليم والخطابة في المحافل العظام.

ولم تكن هذه الجوانب وحدها ثمار اشتراك الطبقة الشعبية في العلم والثقافة، فقد كانت هناك ثمرة مهمة غاية الأهمية، هي محاولة أن يصبح العلم شعبياً بحيث لا يعلو على أفهام العامة، وبحيث يصل إليهم من أسهل الطرق وأيسرها، ويتضح ذلك عند الجاحظ في كتابة "البيان والتبيين" و "الحيوان" وعند ابن قتيبة في كتابه "عيون الأخبار". ومر بنا أن الجاحظ أراد بكتابه "البيان والتبيين" أن يرد على الشعوبية رداً مفحماً ببيان ما تحمل الثقافة العربية في الخطابة والشعر والأمثال من قيم بلاغية رائعة، ونضيف هنا أنه أراد أن يذلل هذه الثقافة بعرضها في أسلوب عصري يقربها من أفهام العامة بحيث تسيغها بدون أي عسر أو مشقة. وبون بعيد بين عرض هذه الثقافة عند اللغويين من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد وعرضها عند الجاحظ في البيان والتبيين، فهي عند الأولين جافة جفافاً شديداً ولا يستطيع غير المتخصصين فهمها والفقه بمسائلها العويصة، أما في البيان والتبيين فعذبة سائغة لا للطبقة الوسطى من المثقفين فقط. بل أيضاً للطبقة الشعبية الدنيا. وبالمثل عرضه لهذه الثقافة في كتابه الثاني "الحيوان" فهو يقرب هذه الثقافة من الشعب، بحيث يجد فيها لذة ومتاعاً، وهو يمزج بينها وبين ما عرف عند أرسطو وغيره من علم الحيوان، ليتضح أن هذا العلم لم يكن غريباً ولا بعيداً عن العرب، بل لقد استظهروا منه كثيراً في أشعارهم. وهو لا يقرب هذا العلم من العامة وحده، بل قرب أيضاً علم الكلام ونظريات أصحابه من المعتزلة أمثال النظام، بل أدق الدقائق من هذه النظريات وما حملت من براهين عقلية سديدة، وكأنما كان يريد للعامة أن تتمثل هذه البراهين حتى تتسلح عقلياً في مناقشتها للمسائل ومحاورتها لأصحاب الملل وخاصة النصارى كما أسلفنا منذ قليل. وأما كتاب عيون الأخبار فقد عرض في مجلداته الأربعة الثقافات المعاصرة له عرضاً بسيطاً سهلاً، حتى يجعل قطوفها دانية للعامة، وحتى لا يظنوا –كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع– أن بينها تعارضاً، فتلك آداب الفرس وتقاليدهم في السياسة والحكم، وتلك وصايا العرب في القضاء

---

[١] الأحكام السلطانية للماوردي ص١٠٧ .

[٢] صح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية) ٦٤/١ .

وغير القضاء وخطبهم وأشعارهم، وتلك أقوال المسيح عليه السلام وأقوال أصحاب الكتب السماوية في الزهد، وتلك أحكام وقواعد في الطعام والنبات والحيوان منقولة عن اليونان، وكل ذلك يسوى منه الكتاب في لغة سهلة يسيرة واضحة أشد الوضوح، بحيث تتيح له أن يتغلغل في طبعة الشعب، وبحيث يتبين في وضوح أنه لا توجد حواجز ولا سدود بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية وما قد يظن من ذلك كله إنما هو أقواس وهمية. وبلغ من قرب هذا الكتاب من نفوس جميع طبقات الشعب الخاصة والعامة أن أكب الناس على ما فيه من آداب الفرس وأهملوا كل ما صور هذه الآداب من كتب أخرى، إذ استطاع ابن قتيبة أن يعطيها صبغة شعبية تجعلها واضحة كل الوضوح، كما استطاع أن يكسوها بأساليبه البديعة ثوباً عربياً ناصعاً، بحيث أصبحت في ثوبها الجديد أنصع وأبهى وأنضر من ثوبها القديم.

obeikandl.com

٢

علوم الأوائل: نقل ومشاركة وتفلسف

تحدثنا في كتاب العصر العباسي الأول عن حركة الترجمة فيه وكيف أنها شملت كل ما استطاع العرب نقله من علوم الهند والفرس واليونان، وكان أكثر ما نقوله عن الفرس والهند في مجال الفلك والرياضات، ونقلوا عن اليونان إما عن اليونانية مباشرة وإما عن السريانية والفارسية مجموعات العلوم التي تتصل بهم من الرياضات والعلوم الطبيعية، وسرعان ما أخذوا يشاركون في هذا التراث فإذا يوحنا بن ماسويه ينفذ إلى إضافة مباحث جديدة في التشريح، وإذا هم يضعون لحركات الأفلاك زيجات وجداول جديدة أكثر دقة من المأثورات الفارسية واليونانية، وإذا محمد بن موسى الخوارزمي ينشئ عصراً جديداً في التاريخ العالمي للرياضيات فيكتشف علم الجبر وقواعده ويعطيه اسمه الذي عرف به في العالم كله. والدولة هي التي هيأت لذلك كله منذ أبي جعفر المنصور، فقد شجعت على الترجمة والنقل بكل الوسائل، ولم يلبث هرون الرشيد أن أنشأ دار الحكمة وجلب إليها المترجمين من مدرة جنديسابور الفارسية ومن السريان والفرس، وخلفه المأمون فاستحالت هذه الدار جامعة كبرة، إذ ألحق بها مرصداً ومكتبة ضخمة، وأرسل البعوث إلى بيزنطة وبلاد الروم تأتيه بالمأثورات اليونانية المختلفة، وأخذت هذه المأثورات تستولى على معظم النشاط في النقل والترجمة، حتى أصبحت لها نهائياً الغلبة على المأثورات الفارسية والهندية.

وأشرنا في حديثنا عن الترجمة في العصر العباسي الأول إلى ما ترجم عن اليونانية من الأصول المختلفة، فقد ترجمت في الرياضيات النظريات الفلكية الإغريقية ومن أهم مصنفاتها التي عنى النقلة بترجمتها كتاب المجسطي لبطليموس الإسكندري، كما عنوا بترجمة كتاب الأصول لإقليدس في الهندسة، وترجموا كثيراً من المؤلفات اليونانية في العلوم الطبيعية وخاصة ما اتصل عند أرسطو بعلم الحيوان وبوصف النباتات مما يهم الصيادلة، وترجموا في الطب مصنفات جالينوس وبقراط. وترجموا لكثيرين من اليونان غير أرسطو، فترجموا لأفلاطون وغير أفلاطون مصنفات مختلفة. ويلاحظ أن العرب استعانوا في هذه الترجمة بالسريان، وكانوا قد نقلوا إلى لغتهم قبل الإسلام كثيراً من المأثورات اليونانية، وتصادف أن أخذوها من علماء المذهب الأفلاطوني الجديد، مع ما أضافوه إليها من شروح اقتبسوها من آراء أفلاطون أو من الأفلاطونية الجديدة المتأثرة بفيثاغورس أو بالرواقيين. وليس ذلك فحسب، فإن السريان فيما يبدو نسبوا إلى أرسطو وأفلاطون كتباً كثيرة، ونقلت إلى العرب بهذه النسبة الخاطئة، مثل كتاب الربوبية

المنسوب خطأ إلى أرسطو ومحوره بحوث في النفس والإنسان تمزج بقصص كثيرة وبقواعد في السياسة والصحة والتغذية. على أن كثيراً مما نسبوه إليه صحيح وخاصة ما يتصل بالطب والحيوان والعلوم الطبيعية. وكلما تقدمنا مع الزمن كثر الاهتمام به وبترجمة آثاره، حتى غدا المعلم الأول للعرب وعلمائهم وفلاسفتهم المختلفين، وخاصة في علم المنطق والطبيعيات، أما في الرياضيات فكان أساتذتهم فيها فيثاغورث وبطليموس وإقليدس.

ويذهب العصر العباسي الأول، ونمضى في العصر العباسي الثاني فنجد حركة النقل والترجمة تزداد حدة وقوة وتنمو الترجمة عن اليونانية نمواً عظيماً، ويتم لها الانتقال من الترجمة الحرفية التي تمتلئ بالعثرات والصعوبات اللفظية إلى ترجمة الفقر والعبارات بالمعنى ترجمة دقيقة. وهذا هو السر في أننا نجد كثيراً في ترجمات المترجمين أنهم أعادوا ترجمة هذا الكتاب أو ذاك مما ترجمه الحجاج بن مطر وغيره من مترجمي العصر العباسي الأول. ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا حينئذ كتاباً يونانياً في أصله اليوناني أو في ترجمته السريانية إلا ترجموه إلى العربية. وكان الذي أذكى الترجمة والنقل حينئذ الأموال الضخمة التي كان يغدقها المتوكل وغيره من الخلفاء على المترجمين، ويكفي أن نذكر ما أهداه المتوكل إلى حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٤ فإنه أهداه ثلاث دور من دوره وحمل إليها كل ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب وأنواع الستائر الأنيقة وأقطعة بعض الإقطاعات وجعل له راتباً شهرياً خمسة عشر ألف درهم غير ثلاثة خدم من الروم وغير ما أسبغه على أهله من الأموال والخلع والإقطاعات[١]. وكان الوزراء بدورهم يغدقون على المترجمين أموالاً كثيرة، سواء أهدوا إليهم بعض ترجماتهم أو بعض ما ألفوه على هدى ما قرءوه في اللغتين اليونانية والسريانية، وفي أخبار قسطا بن لوقا أنه أهدى إبراهيم بن المدبر كتابين كما أهدى الحسن بن مخلد وزير المعتمد كتاباً[٢]. وفي أخبار إسحق بن حنين أنه كان منقطاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد[٣]. وكان ثابت بن قرة لا ينقطع عن إسماعيل ابن بلبل وزير المعتمد وله ألف مقالة في الهندسة. [٤] وكان كثير من الأطباء يكلفون المترجمين نقل كتب طبية أو كتب تتصل بالطب، يقول ابن أبي أصيبعة: "وكان مما نقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وأبنه بختيشوع وداود بن سرابيون وسلمون بن بنان

---

[١] طبقات الأطباء لبان أبي أصبيعة (نشر مكتبة دار الحياة بيروت) ص٢٧٠ .

[٢] ابن أبي أصبيعة ص٣٣٠ .

[٣] ابن أبي أصبيعة ص٢٧٤ .

[٤] ابن أبي أصيبعة ص٣٠٠ .

واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفوري وحبيش بن الحسن"[١]. وكانت هناك أسر وأفراد كثيرون يعدون أنفسهم حماة للترجمة والمترجمين، وكانوا يتنافسون في هذه الحماية مع أنفسهم ومع الخلفاء، ذكر منهم ابن أبي أصيبعة طائفة[٢]، منها على[٣] بن يحيى المنجم صاحب خزانة الحكمة التي سبق أن تحدثنا عنها، وأحمد بن المدبر. وممن نوه بهم القدماء طويلاً في هذا الجانب بنو موسى[٤] بن شاكر وهم محمد والحسن وأحمد، وكان الأول والثاني يشغفان بالهندسة في حين شغف الثالث بالحيل (الميكانيكا) وكان لهم مرصد أسسوه على دجلة، وكانوا يغدقون رواتب شهرية على جماعة من المترجمين بينهم حنين بن إسحق وحبيش ابن أخته وثابت بن قرة، ويقال إنها كانت تبلغ في الشهر خمسمائة دينار[٥]. وكل هذا الاهتمام بالترجمة والإنفاق عليها والتنافس فيها أحدث إزدهاراً عظيماً لها في العصر العباسي الثاني فقد أكب المترجمون على المأثورات الإغريقية في كل فروع العلم والفلسفة يترجمونها، وكادوا لا يبقون كتاباً بدون ترجمة وبدون شرح أو تخليص. ومن يرجع إلى ابن أبي أصيبعة والقفطي تهوله الكثرة الغامرة مما ترجموه، إذ يبلغ أحياناً عند المترجم الواحد مئات الكتاب والرسائل، سوى ما ألفوه وصنفوه.

وأهم المترجمين حينئذ وأشهرهم حنين[٦] بن اسحق المتوفى سنة ٢٦٤ وكان طبيباً مسيحياً نسطورياً من مدرسة جنديسابور، رحل إلى بلاد الروم وتعلم اليونانية وكان يجيد بجانبها السريانية والفارسية والعربية، وهو وأبنه إسحق[٧] وابن أخته حبيش[٨] أكثر المترجمين في العصر إنتاجاً، وكانوا يعملون معهاً، فنسبت بعض الترجمات لهذا تارة ولذلك تارة أخرى. وكان يعاونهم تلاميذ

---

[١] ابن أبي أصيبعة ص٢٨٤ .

[٢] ابن أبي أصيبعة ص٢٨٣ .

[٣] أنظر أيضاً تاريخ الحكماء للقفطي (طبعة ليبزج) ص١٣٢ .

[٤] راجع في بني موسى ابن أبي أصيبعة ص٢٦٠ والفهرست ص٣٩٢ والقفطي ص٣١٥ ، ٤٤١ والعلم عند العرب لأندوميلي (نشر الجامعة العربية) ص١٣٩ .

[٥] ابن أبي أصيبعة ص٢٦٠ وانظر ترجمة الرازي ص٤١٤ وكثرة من ألف الكتب بأسمائهم وأهداها إليهم .

[٦] أنظره في الفهرست ص١٢٣ والقفطي ص١٧١ وابن أبي أصيبعة ص٢٥٧ والدوميلي ص١٣٢ ، ١٣٩ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر – الطبعة الرابعة) ص٣٧ .

[٧] راجع الفهرست ص٤٢٩ والقفطي ص٨٠ وابن أبي أصبيعة ص٢٧٤ ودي بورس ٣٧ وألدوميلي ص١٤٢ .

[٨] أنظر الفهرست ص٤٢٨ والقفطي ص١٧٧ وابن أبي أصيبعة ص٢٧٦ ودي بورص ٣٧ وألدوميلي ص١٤٢ .

كثيرون، يدل على ذلك ما جاء في ترجمة حنين من أن الخليفة المتوكل "جعل له كتاباً نحارير عالمين بالترجمة يترجمون بين يديه وهو يتصفح ما ترجموا، وفي مقدمتهم اصطفن بن بسيل[١]"، ويبدو من اسمه أنه يوناني الأصل. وكان حنين يشغف بترجمة الكتب الطبية، وقد ترجم لجالينوس منها عشرات إلى العربية والسريانية، غير ما أصلحه لتلاميذه من آثاره مما ترجموه إلى اللغتين. ويصور لنا في مقدمه بعض الكتب التي ترجمها مدى دقته العلمية في الترجمة إذ كان لا يزال يجمع للكتاب الذي يريد ترجمته كل ما يمكنه من نسخ، حتى إذا اجتمعت له قابل بينها وعارض عبارتها بعضها على بعض واستخلص للكتاب ترجمة دقيقة[٢]. وكان أبنه إسحق يعني بترجمة الكتب الحكمية والفلسفية، فلم يقف عنايته مثله على الكتب الطبية، ولذلك كثرت ترجماته لأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس. أما حبيش فعنى مثل خاله بترجمة الكتب الطبية. واشتهر اصطفن بأنه كان أول من ترجم كتاب ديوسقرويدس في النبات وكتاب أوريباسيوس في الأدوية المفردة[٣].

وبجانب هذه المدرسة الكبيرة وأستاذها حنين كان هناك مترجمون يفوقون الحصر، من أشهرهم ثابت[٤] بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ ومن أهم ما ترجمه كتاب الأصول لإقليدس، ويقول ألدومييلي إن النص العربي يصلح النص الإغريقي في مواضع مختلفة، وترجم كتاب أرسطو في النبات تفسير نيقولاوس، وله كتاب قرسطون في نظرية الميزان واعتدال الأجسام الميكانيكية، وكان له أثر كبير في لاتينية العصور الوسطى كما يقول ألدومييلي، ومن مصنفاته كتاب الذخيرة في الطب ألف لابنه سنان. ومن أنبه المترجمين حينئذ قسطا[٥] بن لوقا البعلبكي المتوفى سنة ٣٠٠ وكان مسيحياً من أصل يوناني، ومن ترجماته شرح الإسكندر الأفروديسي وشرح جون فيلوبون على السماع الطبيعي وكتاب آراء الفلاسفة المنسوب إلى فلوطرخس وكاتب الحيل لهيرون المنشور في ليبزج سنة ١٩٠٠ وكان قد ترجمه للخليفة المستعين. وترجم لإبراهيم بن المدبر كتابه الجامع في الدخول إلى علم الطب غير كتب أخرى ألفها أو ترجمها لكثيرين. وله رسالة صغيرة في الفرق بين النفس والروح ترجمت إلى اللاتينية. وخاتمة هؤلاء المترجمين النابهين أبو

---

[١] ابن أبي أصيبعة ص٢٦٢ والقفطي ص١٧١ .

[٢] أنظر أصول نقد النصوص ونشر الكتب لبرجستراسر (طبع مطبعة دار الكتب المصرية) ص٩٤ .

[٣] القفطي ص٧٤ وألدومييلي ص١٤٢ .

[٤] راجع الفهرست ص٣٩٤ والقفطي ص١١٥ وابن أبي أصيبعة ص٢٩٥ ودي بورص ٣٧ وألدومييلي ص١٤٢ .

[٥] أنظر الفهرست ص٤٢٤ والقفطي ص٢٦٢ وابن أبي أصيبعة ص٣٢٩ ، وألدومييلي ص٤٢٤ والقفطي ص٢٦٢ وابن أبي أصيبعة ص٣٢٩ وألدومييلي ص١٥٥ ، ١٦٥ ودي بورص ٣٩ .

بشر متى[١] بن يونس، وكان من أصل يوناني، وقد عنى بترجمة جميع آثار أرسطو في المنطق وغير المنطق، وترجم له كتاب الشعر وترجمة مضطربة، لأنه يدور –كما هو معروف– حول المأساة اليونانية، ولم يكن العرب ولا المترجمون حينئذ يتصورونها، ولذلك يكون لمتى عذره في اضطراب ترجمته لهذا الكتاب[٢]. وقد انتهت إليه رياسة المنطقيين في عصره، وله مناظرة في المنطق والنحو مع السيرافي سنة ٣٢٠ احتفظ بها ياقوت في معجمه[٣].

وبمتى بن يونس ينتهي عصر الترجمة العظيم، ومنذ أوائل هذا العصر، بل منذ عصر المأمون، يشارك العرب في علوم الأوائل التي ترجموها، بحيث يظهر عندهم علماء يزاحمون العلماء الأوائل عند الأمم القديمة بمناكب ضخمة، ويكفي أن نذكر محمد بن موسى الخوارزمي وابتكاره لعلم الجبر الذي أشرنا إليه في غير هذا الموضع والذي ليس له سابقة عند علماء الأوائل، وله شروح على كتاب إقليدس في الهندسة وكتاب بطليموس في الجغرافية، وقد خلف فيها أول كتاب عربي جغرافي سماه صورة الأرض، ونشطت الكتب والمباحث الجغرافية منذ هذا التاريخ المبكر. ومع افتتاح هذا العصر العباسي الثاني يؤلف عبيد الله بن خرداذبة الفارسي الأصل كتابه "المسالك والممالك" وهو يصرح في مطالعة بأنه اعتمد في بيان حدود الأرض ومسالكها على كتابات بطليموس. وأخذ غير عالم يتناول هذا الموضع، تناوله أبو عبد الله الجيهاني وأبو زيد البلخي، وأهم منهما ابن الفقيه، غير أنه لم يذكر إلا المدائن العظمى ولذلك سمي كتابه "البلدان". وأدق منه وأمهر علمياً اليعقوبي أحمد بن يعقوب العباسي، إذ نراه في كتابه الذي سماه أيضاً باسم البلدان يعتمد على الرحلة والطواف ببلاد ديار الإسلام واصفاً لها وصف المشاهد المثبت من الأخبار. وبذلك تم تكامل علم الجغرافيا عند العرب. واهتموا حينئذ بإفراد جزيرة العرب وجغرافيتها ببعض الكتب على نحو ما نجد عند الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ في كتابه "صفة جزية العرب".

وعلى نحو ما نهضوا حينئذ بعلم الجغرافيا نهضوا بالرياضيات والفلك، يتقدمهم محمد بن موسى الخوارزمي، ومن تلاميذه في مرصد المأمون حبش الحاسب، وله جداول فكلية مهمة. ومن نابهي الفلكيين في أواسط العصر أحمد ابن محمد بن كثير الفرغاني وكتابه: "أصول الفلك" له ترجمات كثيرة إلى اللاتينية، وترك هناك تأثيراً كبيراً حتى عصر كوبرنيقوس[٤]، وله كتب

---

[١] راجع الفهرست ص٤٢٩ وبان ابي أصبيعة ص٣١٧ والقفطي ص٣٢٣ وعبد الرحمن بدوي في كتاب فن الشعرلأرسطو مع الترجمة العربية القديمة لمتى بن يونس نشر مكتبة النهضة المصرية .

[٢] أنظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص٧٦ .

[٣] أنظر معجم الأدباء ١٨٠/٨ .

[٤] ألدوميلي ص١٦٧ وأنظر في ترجمة الفرغاني الفهرست ص٤٠٣ والقفطي ص٢٨٦ .

مختلفة في الإسطرلاب. ومن الفلكيين الذين اشتهروا حينئذ شهرة واسعة أبو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ وكان له تأثير واسع في العرب ومسيحي العصور الوسطى وترجمت له كتب كثيرة إلى اللغة اللاتينية[١]. ومن الفلكيين النابهين في العصر الفضل[٢] بن حاتم النيريزي المتوفى سنة ٣١٠ وكان متقدماً في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله شروح على أصوله إقليدس ترجمها جيرار دي كريمونا ونشرها كورتزه في ليبزج سنة ١٨٩٩ وله شروح أيضاً على كتاب بطليموس في الفلك وزيج على مذهب الهند وكتابها "السند هند" وكتاب سمت القبلة أو معرفة اتجاهها. وكان يعاصره البستاني[٣] محمد بن جابر بن سنان المتوفى سنة ٣١٧ "ولا يعلم أحد في الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها" وكان له مرصد في الرقة على نهر الفرات، وله زيج جليل ضمنه أرصاد النيرين وإصلاح الحركات المثبتة لهما في كتاب المجسطي لبطليموس، وترجم زيجه إلى اللاتينية، وقد لخص نلينو أهمية مباحثه الفلكية وتصحيحه لبطليموس كثيراً من أخطائه في دراسته القيمة عنه بدائرة المعارف الإسلامية.

وبالمثل نهضت العلوم الطبية والطبيعية وكانت تشمل حينئذ الصيدلة والكيمياء، وقد أنتج العصر العباسي الأول أكبر كيميائي في تلك الحقب القديمة، وهو جابر بن حيان، وسبق أن ألممنا به في كتابنا عن العصر المذكور، وكان قد ترجم كتاب الحيوان لأرسطو وعلى هديه ألف الجاحظ كتابه "الحيوان" في هذا العلم، وحلل بلاسيوس هذا الكتاب في مجلة إيزيس العدد الرابع عشر سنة ١٩٣٩ مبيناً ما يشتمل عليه من الطبيعة الكيمائية وعلم الحيوان وعلم الإنسان[٤]. وظل المترجمون يتوفرون على ترجمة كتب الصيدلة والكيمياء والطب، وكل يحاول تصحيح ترجمة من سبقه وإفادة الأطباء بكل ما يستطيع. ومر بنا أنهم كانوا يشجعون بأموالهم الغدقة الترجمة وأن كثيراً من الكتب ترجم باسمهم. ومن أهمهم بختيشوع[٥] ابن جبرائيل بن بختيشوع، وبلغ من كثرة ثرائه أن كان يضاهى الخليفة المتوكل في الزينة والفرش والمأكل والمشرب، ويقال إنه وصف للمتوكل دواء في بعض وعكاته فأمر له بثلثمائة ألف درهم وثلاثين تختاً من الثياب،

---

[١] ألدوميلي ص٢٦٩ وراجع ترجمته في الفهرست ص٤٠٠ والقفطي ص١٥٢ .

[٢] أنظر فيه ألدوميلي ص١٥٥ ، ١٦٢ والفهرست ص٤٠٣ والقفطي ص٢٥٤ .

[٣] أنظر فيه أندوميلي ص١٥٥ ، ١٦٨ والفهرست ص٤٠٣ والقفطي ص٢٨٠ .

[٤] ألدوميلي ص٩٦ .

[٥] راجع فيه الفهرست ص٤٢٧ والقفطي ص١٠٢ وابن أبي أصيبعة ص٢٠١ وفي القفطي أنه كان يلبس الجبة المثقلة بالوشي قيمتها ألف دينار .

ونقل له حنين كثيراً من كتب جالينوس الطبية. وكان يعاصره سابور[١] بن سهل المسيحي صاحب بيمارستان جنديسابور المتوفى سنة ٢٥٥ واشتهر بكتاب له في الصيدلة كان يقع في ٢٢ باباً وظل الأطباء والصيادلة يعتمدون عليه حتى ظهر كتاب ابن التلميذ في القرن السادس ومن كبار الأطباء في العصر سنان[٢] بن ثابت بن قرة الذي أسلم على يد الخليفة القاهر بالله، وقد عاش حتى سنة ٣٣١ وتقلد مارستانات بغداد الخمسة سنة ٣٠٤ وبني في سنة ٣٠٦ مارستانين كبيرين، أحدهما للخليفة المقتدر وكانت نفقته مائتي دينار في كل شهر، والثاني لأمه وكانت النفقة عليه شهرياً ستمائة دينار وأقام للوزير ابن الفرات مارستاناً ثالثاً ببغداد سنة ٣١١ كانت النفقة عليه شهرياً، مائتي دينار، وبني لبجكم حاكم بغداد سنة ٣٢٩ مارستاناً رابعاً ببغداد على الشاطئ الغربي لدجلة وزوده بالأطباء والأدوات المختلفة. ومن طريف ما يروي أن نجد حامد بن العباس أحمد وزراء الخليفة المقتدر يأمره أن يفرد أطباء للمسجونين يزورونهم يومياً ومعهم الأدوية والأشربة، وظل ذلك تقليداً مرعياً حتى نهاية العصر، ونراه يأمره أيضاً بإرسال متطلبين إلى الفلاحين في سواد العراق بحوض دجلة والفرات ويطوفون به ويقيمون في كل جانب منه المدة التي تدعو إليها الحاجة ، ومعهم خزانة الأدوية والأشربة. ويبدو أن المتطببين كثروا في العصر، حتى ليذكر ابن أبي أصيبعة أن عددهم في جانبي بغداد وحدها بلغ في سنة ٣١٩ ثمانمائة رجل ونيفاً وستين سوى من كان في خدمة السلطان.

وطبيب المسلمين غير مدافع في العصر، كما يقول القفطي، هو أبو بكر محمد[٣] بن زكريا الرازي المتوفى حوالي سنة ٣٢٠ ولد كما يتبين من اسمه بالري، وسبق أن عرضنا له في حديثنا عن الزندقة وألممنا بكتابه "مخاريق الأنبياء" وقد بدأ حياته بدراسة العلوم الرياضية، ثم اشتغل بالكيمياء والطب، وعمل في بيمارستان موطنه وبمارستان بغداد وتنقل في مدن إيران وخرسانات، وألف باسم كثيرين من الأمراء وذوي الجاه طائفة من كتبه المهمة، وترجم إلى اللاتينية كثير من كتبه الطبية وظل حجة الطب غير مدافع حتى القرن السابع عشر، وما زال المستشرقون يعنون به وبآثاره حتى اليوم وقد نشر في باريس سنة ١٩٣٣ فهرس كتبه الذي ذكره البيروني ومنه تبين أنه خلف في الطب ٥٦ كتاباً وفي الطبيعيات ٣٣ وفي الفلسفة ١٧ وفي الرياضيات ١٠ وفي

---

[١] أنظر في صابور الفهرست ص٤٢٧ والقفطي ص٢٠٧ وابن أبي أصيبعة ص٢٣٠ وألدوميلي ص١٧٠ ، ١٧٢ .

[٢] راجع سنان بن ثابت في الفهرست ص٣٩٤ ، ٤٣٥ والقفطي ص١٩٠ وابن أبي أصيبعة ص٣٠٠ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣ ، ٢٧٩.

[٣] أنظر في ترجمته المراجع المذكورة في حديثنا عنه بين الزنادقة في الفصل السابق ، وراجع دي بور ص١٤٧ وألدوميلي ص١٧١-١٧٨ .

obeikandl.com

الميتافيزيقا ٦ وفي المنطق ٨ وفي علم الكلام ١٤ وفي الكيمياء ٢٣ وأكبر كتبه في الطب كتابه الحاوي، وهو دائرة معارف طبية ضخمة، وقد ترجمت منه أجزاء إلى اللاتينية، واستخرج منه ماكس ما يرهوف ٣٣ ملاحظة إكلينيكية لها خطرها. ويلي هذا الكتاب الطبي في الأهمية كتابه المنصوري الذي أهداه إلى الأمير الساماني بخراسان المنصور بن إسحق، وهو كتاب نفيس، ترجم إلى اللاتينية مراراً في العصور الوسطى وعصر النهضة. وترجم له أيضاً إلى اللاتينية مراراً كتابه في الجدري والحصبة، وهو بحث طبي رائع في الوبائيات، وله ترجمات حديثة إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية. ولم يعن بالطب الجسمي وحده فقد عنى أيضاً بالطب النفسي، إذ ألف كتاباً في الطب الروحاني نشرته جامعة القاهرة، وهو فيه يكبر من شأن العقل عارضاً النقائض الخلقية التي تسبب الأمراض والعلل النفسية مبيناً أن المصاب بها إذا حكم معياره العقلي موازناً بين نفعه وضرره تخلص من تلك العلل والأمراض وفارقته إلى غير مآب. وكان ينصح الأطباء أن يوهموا مرضاهم أنهم أصحاء وإن لم يثقوا بذلك لأن مزاج الجسم في رأيه تابع لأخلاق النفس. وكان يهتم بالكيمياء معلناً أن الفيلسوف لا يكون فيلسوفاً حقاً إلا إذا تعلم صناعة الكيمياء ومهر فيها، وله فيها كتب مختلفة كما قدمنا. وكان يؤمن بخمسة مبادئي قديمة تأثر فيها بفلاسفة اليونان مثل إنباذوقليس وأنكساجوراس وهي: الله تعالى والنفس الكلية والهيولى الأولى والمكان المطلق والزمان المطلق، وكان يؤمن بقدم هذه المبادئ وأنه لا بد منها لوجود العالم.

وكان طبيعياً وقد نقلت الفلسفة اليونانية إلى العربية أن تصبح للعرب بدورهم فلسفة ذات طوابع مستقلة، ومر بنا أن ما ترجم إليهم من تلك الفلسفة صبغ بالصبغة الأفلاطونية الجديدة عن طريق تأثر السريان بها، وكان ذلك سبباً في أن تشوب فلسفتهم تلك النزعة. ولعل أول فيلسوف عربي بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف نلتقي به في هذا العصر هو الكندي[١] يعقوب بن إسحق، وهو عربي أصيل من قبيلة كندة، ولذلك لقب فيلسوف العرب، نشأ بالبصرة ثم تركها إلى بغداد ويبدو أنه أكب في نشأته على الاعتزال، ولعل ذلك ما جعل نجمه يأفل فيما بعد حين أفل نجم المعتزل لعهد المتوكل. ولا تعرف سنة وفاته ويبدو أنه عاش حتى أواخر العقد السادس من القرن الثالث. وله كتب ورسائل تعد بالعشرات بل بالمئات، وهي تبلغ عند ابن النديم نحو مائتين

---

[١] أنظر في الكندي الفهرست ص٣٧١ والقفطي ص٣٦٦ وابن أبي أصيبعة ص٣٨٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثاً للشيخ مصطفى عبد الرازق في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة لعام ١٩٣٣ ودي بور ص١٧٦ وألدوميلي ص١٤٩ ، ١٥٣ ومقدمة الدكتور محمد عبد الهادي أبي ريدة لرسائل الكندي الفلسفية . طبع مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، وكذلك مقدمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني لمجموعة أخرى من رسائله ، وكتاب دور العرب في تكوين الفكر الأوربي لعبد الرحمن بدوي (طبع دار الآداب بيروت) .

وأربعين وعند القفطي نحو مائتين وثلاثين وعند ابن أبي أصيبعة نحو مائتين وثمانين، وتتناول العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق والأخلاق والسياسة والكلام والجدل والطب. وقد ترجم كثير منها إلى اللاتينية وأثر في شعوبها تأثيراً عميقاً، ويقول ألدوميلي إن كتابه في الهندسة أثر تأثيراً ملحوظاً في روجر بيكون. وقد يفهم من بعض ما كتبه ابن أبي أصيبعة وغيره عنه أنه كان يترجم عن اليونانية والسريانية ويرى الباحثون أنه لم يكن يعرفهما، إنما كان يصلح ويصحح بعض ما ترجم عنهما، وله تهذيبات لكثير مما ترجم، وله أيضاً شروح وتعليقات. ويذكر ابن النديم وغيره أن له كتباً في التوحيد والعدل والاستطاعة أو حرية الإرادة، مما قد يدل على اتجاهه الاعتزالي، ومما يدل بقوة على هذا الاتجاه عنده إشادته بالعقل. وهو فيلسوف إسلامي بالمعنى الدقيق، إذ له رسائل في إثبات النبوة والدفاع عنها دفاعاً قوياً، وكان يذهب إلى أن العالم محدث مخالفاً بذلك أرسطو في زعمه أنه قديم، وذهب إلى أن النفس بسيطة وأنها من نور الله، وعنها صدر عالم الأفلاك، والنفس الإنسانية تفيض عن هذه النفس الكلية، وهي تتصل بالجسد، ولكنها تظل في جوهرها مستقلة عنه، حتى إذا فارقته التذت لذة كبيرة، وقال إن الكواكب لا تؤثر فيها، لأنها إنما تؤثر في الأمور الطبيعية. وله بحوث فلسفية في الرياضة، ولكنها دون بحوثه الطبيعية وفيما وراء الطبيعة. وربما كانت أهم نظرية فلسفية له طبع بها الفلسفة الإسلامية هي نظريته في أن العقل مصدر المعارف وتقسيمه له إلى عقل فاعل هو الله، وعقل بالقوة يكمن في داخل الإنسان، وعقل بالملكة هو العقل المنفعل بعد حصول المعقولات فيه، وعقل مبين يؤدي للغير معقولاته. ومما قرره أن الحواس تدرك الجزئيات والصور المادية في حين أن العقل يدرك الكليات وما يتصل بها من الأنواع والأجناس. وذهب إلى تناهي الجسم والزمان والحركة من جهة الفعل لا من جهة القوة، وهاجم الكيمياء هجوماً عنيفاً، وأكبر الظن أنه إنما كان يقصد ضرباً خاصاً من الكيمياء شاع في عصره، هو المتصل بالسحر والخرافة وكشف الأسرار.

وإذا كان العصر قد افتتح بفيلسوف هو الكندي فإنه اختتم أيضاً بفيلسوف له مكانة كبيرة في الفلسفة الإسلامية هو الفارابي[١] أبو نصر محمد بن محمد ابن طرخان المتوفى سنة ٣٣٩ ويقال إنه من أصل فارسي، ولد في فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر. ويبدو أنه تلقن في نشأته ما كان في خراسان من علوم الأوائل وسرعان ما مضى يطلبها في بغداد، وأكب على الرياضيات

---

[١] راجع في الفارابي الفهرست ص٣٨٢ والقفطي ص٢٧٧ وابن أبي أصيبعة ص٦٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثاً للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق في الجزء السابع من مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق ودي بورص ١٩٢ ومقدمة ديتريصي لرسائله (طبعة ليدن) ، وأنظر مجموعة أخرى طبعت في حيدر آباد وظهر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ٢: ١٣١ .

والطبيعيات والإلهيات واستوعب ذلك كله استيعاباً منقطع القرين، وسرعان ما أخذ يوفق بينه وبين الدين الحنيف من جهة وبينه وبين العقل الذي أكبره الكندي من جهة أخرى، واستطاع أن ينفذ من خلال ذلك إلى تشكيل الفلسفة الإسلامية في صورتها المبكرة، بحيث عد فيلسوف المسلمين غير مدافع، ولعل أول ما يلاحظ على فلسفته أنها تعني بالإلهيات، فهو لا يعني بالطبيعيات، وهو يرغب عن فيثاغورث وأضرابه من الرياضيين. ويتضح إكباره العقل في اهتمامه بالمنطق وما يؤدي إليه من استنباطات كلية مما جعله يعني بشرح كتبه عند أرسطو وتفصيل مسائله من تصور وتصديق وقضايا وبراهين وأقيسة ومراتب ظن متفاوتة، ويتعمق في بحث الكليات وفي كل جانب من فلسفته الإلهية يتضح فكره العقلي المنطقي، من ذلك ذهابه إلى أن كل موجود إما واجب الوجود وإما ممكن، وبذلك جعل أو صفة لله هي أنه الموجود الواجب الوجود في حين أن كل ما عداه ممكن الوجود أو بعبارة أخرى حادث فهو القديم وحده. وصلة هذه الفكرة بالدين الحنيف واضحة، وهو عنده الموجود الأول الفرد بالذات ولا جنس له ولا تركيب فيه ولا يمكن حده، إذ هو لا يتحيز في مكان، وهو أكمل الموجودات ويجب أن تكون معرفتنا به أكمل معرفة. وإذا كانت معرفتنا بالرياضيات أكمل من معرفتنا بالطبيعيات للتعميم الساري في قضاياها وجب أن تكون معرفتنا به فوق معرفتنا بالرياضيات والطبيعيات جميعاً. ويقبس من الفلسفة قبساً يمزجه بقبس آخر من التصوف لعصره، فإذا هو يذهب إلى أن الله يفيض عنه منذ الأزل مثاله وهو العقل الأول الذي يحرك الفلك الأكبر، وتلى هذا العقل عقول الأفلاك الثمانية، وهي التي تصدر عنها الأجرام السماوية، والعقول التسعة مجتمعة هي ملائكة السماء ومرتبتهم في الوجود مرتبة ثانية، وفي المرتبة الثالثة العقل الفعال في الإنسان وهو روح القدس الذي يصل العالم العلوي بالعالم السفلي. وفي المرتبة الرابعة النفس الكلية، ومنها ومن العقل تتكاثر أفراد الإنسان. وفي المرتبة الخامسة الصورة. وفي السادسة المادة. والمراتب الثلاث الأولى: الله وعقول الأفلاك والعقل الفعال ليست أجساماً، أما المراتب الأخرى فتلابس الأجسام. وواضح الأثر الإسلامي في هذا التفلسف، فقد ذكر الله وهو العلة الأولى عند الفلاسفة وذكرت الملائكة وروح القدس مع محاولة وضع تفسير جديد لهما. وكان يذهب إلى أن النفس كمال الجسم، أما كمال النفس فهو العقل. وبحث في السعادة مبحثاً تأثر فيه أيضاً بالتصوف تحدث فيه عن شروطها ودرجاتها، وصرح في قوة بأن اللذات العقلية والروحية تفوق اللذات المادية الجسيمة، وأن السعادة لا تطلب لغاية وراءها وإنما تطلب لذاتها، وأداتها في رأيه الأفعال والأخلاق الجميلة، وهي لا تدرك إلا إذا تحررت النفس الناطقة من أغلال المادة والشهوات. ويصرح في كتابة آراء أهل المدينة الفاضلة بأن الحاكم ينبغي أن يكون متحلياً بكل الفضائل الإسلامية والفلسفية متجنباً للذات الجسمية، إذ فيه تتمثل المدينة بخيرها وشرها، فإذا كان خيراً فاضلاً كانت المدينة فاضلة، وإذا كان شريراً فاسقاً انهارت المدنية وفسد الحكم فيها فساداً شديداً. وهو يذكر النبوة كثيراً، وهي عنده أعلى

مرتبة يبلغها الإنسان في العلم والعمل، وهو يضعها –كي يوضحها– في مرتبة وسطى بين الإدراك الحسي والمعرفة العقلية خالصة. ونحن لمسنا السطح فقط لنصور فلسفة الفارابي، وهي فلسفة إسلامية عقلية استمدت من روحانية الإسلامي ومن نظريات العقل ومن أفكار الفلاسفة وخاصة أرسطو وأفلاطون مازجة بين هذه العناصر جميعاً، مستخلصة منها فلسفتنا الإسلامية الوسيطة وأصولها السديدة.

obeikandl.com

٣

علوم اللغة والنحو البلاغة والنقد والتاريخ

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول مدى التنافس الذي نشب بين علماء البصرة والكوفة في جمع اللغة وكيف كانوا يرحلون إلى نجد والبوادي ومعهم قوارير المداد وأحمال الصحف ليدونوا كلمات اللغة من ينابيعها الأصلية. وقد مضى كثيرون من علماء البلدتين وتلاميذهما ببغداد في هذا العصر يخرجون إلى البادية ونجد لمشافهة الأعراب والسماع منهم لما يجري على ألسنتهم من أقوال وأشعار وأضافوا إلى ذلك ما سمعوه من أساتذتهم الأصمعي والمفضل الضبي وأبي زيد وأضرابهم. وأخذ تلاميذهم يحملون عنهم رواياتهم، وسرعان ما تكون في هذا العصر السند، إذ يقول العالم اللغوي مثل الأشناندي أبي عثمان سعيد بن هرون المتوفى سنة ٢٨٨: عن التوزي أبي محمد عبد الله بن محمد بن هرون المتوفى سنة ٢٣٣ عن أبي نصر أحمد ابن حاتم الباهلي عن الأصمعي. ومعروف أن علم الأصمعي حمله مع أحمد بن حاتم جماعة منهم الأثرم أبو الحسن على بن المغيرة المتوفى سنة ٢٣١ والزيادي أبو إسحق إبراهيم بن سفيان المتوفى سنة ٢٤٩ والرياشي العباس بن الفرج المتوفى سنة ٢٥٧. وكل أولئك وأضرابهم من رواة اللغويين القدماء كانوا يعتمدون قبل كل شيء على الإملاء، وكان تلاميذهم يحرصون عليه مخافة دخول غلط عليهم في قراءة النصوص. ومع ذلك كان منهم من يأخذ أحياناً عن الكتب، وكانوا يميزونه من سواه، خشية أن يكون قد صحف فيما قرأ، واتسع التصحيف حتى ألف فيه العلماء كتباً مفردة. وجعلهم الاهتمام بالسند يتأثرون برجال الحديث في تجريح الرواة وتعديلهم، وكان علماء البصرة في ذلك أشد تحرجاً من علماء الكوفة وبغداد، وبالمثل تأثروا بهم في تلقيب بعض الروايات بألقاب الجودة والضعف، ويؤثر عن ابن الأنباري الكوفي المتوفى سنة ٣٢٨ قوله: "الكلمات قسمان: كلمات متواترة وآحاد، فأما المتواترة فلغة القرآن وما تواتر من السنة وكلام العرب، وهذا قطعي يفيد العلم، وأما الآحاد فما تفرد بنقله بعض أهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر[١]". وكانوا يجمعون فيما يملونه أشتاتاً من بعض أقوال العرب وأشعارهم وأقاصيصهم، ومما يصور ذلك مجالس ثعلب الكوفي المتوفى سنة ٢٩١. وأحياناً كانوا يؤلفون الكتاب في أقوال وأشعار وأمثال حيثما اتفق مثل صنيع ثعلب في مجالسه، وأحياناً يجمعون كلمات في موضوع واحد مثل كتاب المذكر والمؤنث ليعقوب بن السكيت الكوفي المتوفى سنة ٢٤٣ وكتاب النخل وكتاب الطير لأبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني البصري المتوفى سنة ٢٥٠.

---

[١] المزهر (طبعة الحلبي) ١/١١٤ .

وكان طبيعياً أن تظهر حينئذ معاجم تحصى كلمات اللغة إحصاء دقيقاً دالة على معانيها، وتداول الوراقون معجم العين المنسوب إلى الخليل حتى إذا كان ابن دريد محمد بن الحسن البصري المتوفى سنة ٣٢١ وجدناه يؤلف معجمه اللغوي الكبير: الجمهرة في اللغة، وعلى الرغم من نقد القدماء له وقول نفطويه الكوفي معاصره المتوفى سنة ٣٢٨ إنه ليس أكثر من تحريف لمعجم العين للخليل يعد عملاً باهراً. ودفعتهم فكرة تعليم اللغة للناشئة إلى أن يجمعوا كثيراً من الألفاظ والعبارات الغريبة في طائفة من الموضوعات والمعاني ويؤلفوا فيها كتاباً مثل كتاب الألفاظ لابن السكيت، وهو يحتوي كثيراً من أبيات الرجز المسرفة في الغرابة ومن الألفاظ المهجورة، وهو جانب يميز اللغويين الكوفيين إذ كانوا يكثرون من رواية الغريب المهجور في مصنفاتهم. وعنوا في هذا العصر أشد العناية بجمع دواوين الشعر القديم جمعاً علمياً، عماده التوثق والتحقيق، وهو يعد متمماً لما نهض به في العصر الماضي المفضل الضبي والأصمعي وابن الأعرابي، وكانوا يضيفون إلى الدواوين غالباً شروحاً للتوضيح، ويشتهر في هذا المجال محمد ابن حبيب البصري وثعلب الكوفي والسكري أبو سعيد الحسن بن الحسين البصري تلميذ الرياشي وأصغر تلاميذ طائفة كبيرة من الشعراء، بل مضى يجمع دواوين القبائل، ويقال إنه جمع منها نيفاً وثمانين، ولم يبق الزمن منها إلى قطعاً من ديوان هذيل نشرت في خمس مجموعات أربع منها في أوربا وواحدة طبعت في دار الكتب المصرية، ودائماً نراه يذكر ما اختلف فيه أئمة البصريين والكوفيين في رواية الأبيات وألفاظها المختلفة. وصنفوا كثيراً من المختارات الشعرية، وكان مما صنفوه في العصر الماضي المعلقات والمفضليات والأصمعيات، أما في هذا العصر فمن أهم ما صنفوه من كتب الاختيارات جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، ولا تعلم سنة وفاته بالضبط، ولكن الوسائط في مقدمته لكتابه بينه وبين علماء القرن الثاني جيلان أو ثلاثة مما يؤكد أنه عاش في أواخر القرن الثالث الهجري، ومختاراته تضم تسعاً وأربعين قصيدة موزعة على سبعة أقسام، في كل قسم سبع قصائد، والقسم الأول خاص بالمعلقات، وتغلب القصائد الجاهلية على المجموعة، وتمتاز بالقصائد الطويلة. ويعني ابن الأنباري بشرح مفصل على المفضليات يسوق فيه الفروق بين الروايتين البصرية والكوفية لأبيات هذه المجموعة الكبيرة. وعنى حينئذ شاعران بعمل ديوانين للحماسة هما أبو تمام والبحتري، وكأن اللغويين جعلوا فكرة الاختيار من الشعر القديم والحديث تعم في جميع البيئات. وظهرت عندهم بقوة فكرة عمل مختارات من الشعر والنثر تقر بهما من أفهام الشباب والناشئين عامة، فصنع المبرد كتابه "الكامل" وبه مختارات كثيرة ذللها ويسرها لشداة الأدب واللغة. وكأنما أحس الجاحظ وابن قتيبة، كما مر بنا، أن غاية اللغويين من هذا التيسير والتذليل لا تزال أبعد من أن يحققوها، لأن فكرة التعليم اللغوي من أجل اللغة قبل كل شيء لا تزال غالبة عليهم، فألف الجاحظ البيان والتبيين ليدخل على هذه الفكرة الأفكار الجمالية والبلاغية، وألف ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار

ليدخل بدوره عليها الأفكار الفارسية واليونانية، مازجاً بينها مزجاً يثير رغبة الناشئة والشباب في قراءته، وألف بجانبه مصنفه "أدب الكاتب" ليضرم في قلوبهم الحمية للفصحى وتنقية اللغة مما لابسها أو يكاد يلابسها من الشوائب الأعجمية والعامية. وألفت في العصر كتب كثيرة[١] تصور ما يلحن فيه العامة، منها ما هو لأحمد بن حاتم الذي مر ذكره أو لأبي حاتم السجستاني أو للمازني أبي عثمان بكر بن محمد البصري المتوفى سنة ٢٤٩ أو للمفضل بن سلمة الكوفي المتوفى سنة ٢٩٠ ونيف بقصد جذب الشباب والمتأدبين إلى دوائر الفصحى، وللغاية نفسها ألف ثعلب كتابه "الفصيح" جامعاً فيه كثيراً من الصياغات الفصيحة الناصعة، كما ألف عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني المتوفى سنة ٣٢٧[٢] مصنفه "الألفاظ الكتابية" وهي عقود نظم فيها دوراً من الصياغات البليغة الزاخرة بحيوية دافقة: وعلى غرارها ما جمعه قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ في كتابه "جوهر الألفاظ" وبذلك بث اللغويون في نفوس كثيرين مشاركتهم في تحبيب العربية للناشئة والشباب المتأدبين بوسائل كثيرة. ومنها وسيلة لم نتحدث حتى الآن عنها، ونقصد ما حاوله بعض اللغويين من اتخاذ بعض القصص وسيلة تعليمية، إذ كانوا يقصون بعض حكايات عن الأعراب، مدمجين فيها بعض ألفاظ غريبة كي يسهل على الناشئة حفظها، وممن اشتهر باتخاذ هذه الوسيلة التعليمية ابن دريد إذ ألف أربعين أقصوصة قصيرة- كان يسمى كلاً منها حديثاً-[٣] لغرض التعليم اللغوي وتبسيطه وتيسيره، وبذلك أوحي لبديع الزمان أن يؤلف فيما بعد مقاماته مبتغياً بها الوجهة التعليمية نفسها.

ومن يرجع إلى كتابنا "المدارس النحوية" يطلع في وضوح على نشاط النحاة في العصر، فقد كانت المدرستان البصرية والكوفية قائمتين، وأخذت المدرسة البغدادية طريقها إلى الظهور بأخرة من العصر. وإلى المدرسة البصرية يرجع الفضل في إقامة صرح النحو العربي بكل ما يتصل به من قواعد، لا في هذا العصر بل في العصر السابق له، وخاصة منذ الخليل بن أحمد، فهو الذي صاغه في صورته العامة المعروفة بأبوابه وعوامله ومعمولاته وكل ما سند بناءه من سماع وتعليل وقياس قويم. وأتم سيبويه صنيعه في مصنفه "الكتاب" الذي عده النحاة آية كبرى لا سابقة لها ولا لاحقة. وخلفه الأخفش الأوسط، ففسح للغات والقراءات الشاذة محتجاً لها ومدافعاً دفاعاً سديداً. وفي هذه الأثناء استطاع الكسائي وتلميذه الفراء أن يشيدا في الكوفة مدرسة نحوية، تعتمد على صورة النحو البصري العامة وتستقل بطوابع تميزها، من حيث بسط القياس وقبضه ومن

---

[١] أنظر كتاب الفهرست ص٨٩ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٥.

[٢] راجع مقدمة الألفاظ الكتابية (طبعة بيروت سنة ١٨٨٥).

[٣] زهر الآداب الحصري ٣٠٧/١.

حيث الاتساع في الرواية ومن حيث وضع بعض المصطلحات الجديدة، ومن حيث تلقيب بعض العوامل والمعمولات، وعنى الفراء خاصة بإنكار بعض القراءات الشاذة.

وعلى هذه الشاكلة لا ينتهي العصر العباسي الأول، حتى تكون المدرستان البصرية والكوفي تميزتا تميزاً تاماً، وكان أهم الأئمة البصريين في هذا العصر المازني والمبرد، أما المازني فهو بكر[١] بن محمد الملقب بأبي عثمان المتوفى كما مر آنفاً سنة ٢٤٩ وهو تلميذ الأخفش الأوسط، وكان لسنا قوي الحجة، وله مناظرات مأثورة مع ابن السكيت وغيره من الكوفيين أفحمهم فيها بأدلته القاطعة، وعاش يدرس لطلابه وتلاميذه كتاب سيبويه، وله حوله تعليقات وشروح عدة، منها تفاسير كتاب سيبويه والديباج في جوامعه، وصنف في علل النحو كتاباً، وعنى بالتصريف عناية واسعة جعلته يخصه بكتاب التصريف، ولابن جني عليه شرح مبسوط سماه "المنصف". وفي كتاب "المدارس النحوية" طائفة من آرائه في النحو احتفظ بها النحاة في مصنفاتهم، وهو أول من أعطى علم التصريف صيغته النهائية في كتابه السالف ذكره، ويقول في مطالعه بعد ذكره أمثلة الأسماء والأفعال المجردة والمزيدة: "إنما كتبت لك في صدر هذا الكتاب هذه الأمثلة (الأبنية) لتعلم كيف مذاهب العرب فيما بنت من الأسماء والأفعال، فإذا سئلت عن مسألة فانظر هل بنت العرب على مثالها، فإن كانت بنت فأين مثل ما بنت ... وسأصنع لك من كل شيء من هذا الباب رسماً تقيس عليه ما كان مثله[٢]". وهو يعد أول من فتح بقوة باب التمارين غير العملية في الصرف، إذ نراه يبني من ضرب على مثال جعفر أو على مثال سفرجل وما إلى ذلك من أبنية غير مستعملة في اللغة[٣]. وكان يتشدد في الأخذ بالقياس، مما جعله يرد– على هدى الفراء– بعض القراءات التي تشذ على قواعد النحو ومقاييسه[٤]. وأنبه تلاميذه المبرد محمد[٥] ابن يزيد الأزدي إمام نحاة البصرة أزمنة المتوفى سنة ٢٨٥ وهو آخر أئمتهم المهمين، وفيه يقول ابن جني: "كان يعد جبلاً في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا (البصريين) وهو الذي نقلها وحررها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها[٦]" وكان يشرح لتلاميذه كتاب سيبويه وكتب الأخفش والمازني وله مصنفات كثيرة، منها كتاب الكامل في اللغة والأدب الذي أشرنا إليه فيما أسلفنا من حديث وكتاب المقتضب في النحو المطبوع في القاهرة بتحقيق محمد عبد الخالق

---

[١] أنظر في ترجمة المازني تاريخ بغداد ٩٣/٧، وإنباه الرواة ٢٤٦/١ ومعجم الأدباء ١٠٧/٧.

[٢] راجع المصنف على التصريف ٩٥/١.

[٣] انظر المنصف ١٧٣/١ وما بعدها.

[٤] المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص١١٩.

[٥] راجع في ترجمة المبرد تاريخ بغداد ٣٨٠/٣ وإنباء الرواة ٢٤١/٣ ومعجم الأدباء ١١١/١٩.

[٦] سر صناعة الإعراب لابن جني ١٣٠/١.

عضيمة، وهو كتاب نفيس، وطبع له كتابه "الفاضل" ونسب عدنان وقحطان، وسقطت من يد الزمن مصنفات له كثيرة. وأهميته في تاريخ النحو البصري إنما ترجع- كما لاحظ ابن جني- إلى أنه حرر مسائل هذا النحو وقواعده، وإلى أنه اشتق من أصوله فروعاً كثيرة، وإلى أنه بسط فيه كثيراً من العلل والمقاييس التي لم يسبق إليها، وقد نفذ إلى كثير من التعريفات والآراء المبتكرة في العوامل المحذوفة والمضمرة والملفوظة، وبالمثل في المعمولات ومواقعها في الإعراب، واستكثر من العلل كثرة مفرطة، فكل رأي لا بد له من علة أو علل تسنده، كما استكثر من القياس، مع اعتداده بالسماع عن العرب ومع حس أدبي دقيق في التذوق اللغوي. وله تلاميذ كثيرون، لعل أهمهم الزجاج إبراهيم بن السري المتوفى سنة ٣١٠ وهو امتداد له في عنايته بكتاب سيبويه وفي تصنيفه لبعض الكتب النحوية وفي محاولته النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة مع العناية بالتعليل والقياس. ومن تلاميذه المهمين ابن السراج أبو بكر محمد بن السري المتوفى سنة ٣١٦ وقد عكف على المنطق حتى أتقنه، وعاش يقرأ لتلاميذه كتاب سيبويه وفي مقدمتهم السيرافي وأبو علي الفارسي، وله كتاب الأصول عني فيه عناية واسعة بعلل النحو ومقاييسه، انتزعه من كتاب سيبويه، وأثر دراسته للمنطق واضحة فيه وفي تقاسيمه.

وإذا تركنا المدرسة البصرية إلى المدرسة الكوفية وجدنا لها إماماً مشهوراً في هذا العصر هو ثعلب[1] أبو العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ وقد قرأ على شاكلة أستاذية الكسائي والفراء كتاب سيبويه وكتب الأخفش، وأضاف إلى ذلك زاداً كبيراً حصله من الشعر القديم ودواوينه ومن القراءات والحديث النبوي. وذكر مترجموه له مصنفات كثيرة في النحو واللغة والقراءات والأمثال والمنتخبات الشعرية والنثرية، وقد وصلنا منها "الفصيح" الذي عرضنا له في غير هذا الموضع والذي ابتغى به تقويم ألسنة المبتدئين. وطبع له كتابه "المجالس" وهو إملاءات لمختارات شعرية ونثرية تكتظ بالنحو والأشعار الغريبة والشاذة والقراءات والأمثال والأخبار والأقوال المنثورة. وصنع طائفة كبيرة من الدواوين القديمة. ومن يرجع إلى كتابه المجالس وما تناثر في كتب النحاة له من آراء يجده يطبق تطبيقاً دقيقاً آراء أستاذه الفراء وأستاذيهما جميعاً الكسائي وكل ما أصلاه لمدرستهما الكوفية من أصول في النحو ومن مصطلحات وألقاب جديدة وما كانا يأخذان به أنفسهما من التوسع في الرواية عن العرب والاعتداد بالشواذ اللغوية. وله كتاب مطبوع يسمى قواعد الشعر، وسنعرض له في حديثنا عن البلاغة والنقد. وله- مثل المبرد منافسه- تلاميذ كثيرون، لعل أهمهم أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري المتوفى- كما مر بنا- سنة ٣٢٨، وتضاف إليه مصنفات كثيرة في غريب الحديث وعلوم القرآن وفي اللغة وكتابه الأشداد فيها مطبوع وأيضاً في النحو. وعنى مثل أستاذه بإخراج الدواوين الشعرية القديمة، وسبق

---

[1] أنظر في ثعلب تاريخ بغداد ٢٠٤/٥ وإنباء الرواة ١٣٨/١ ومعجم الأدباء ١٠٢/٥.

أن تحدثنا عن شرحه للمفضليات، وهو مليء بمعارفه الواسعة في اللغة والأشعار والأخبار. وكان– فيما يظهر– مثقفاً ثقافة منطقية، فدعم النحو الكوفي بكثير من العلل السديدة.

وتنشأ بأخرة من العصر المدرسة البغدادية متميزة بمنهجها القائم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع النفوذ إلى كثير من الآراء المبتكرة، وقد تداولها جيلان: جيل مبكر كانت تغلب عليه النزعة الكوفية من أمثال ابن كيسان، وجيل تال كانت تغلب عليه النزعة البصرية من أمثال الزجاجي. ولكي تتضح المدرسة وهاتان النزعتان نقف قليلاً عند ابن كيسان والزجاجي. أما ابن كيسان[١] فهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان المتوفى سنة ٢٩٩ وهو تلميذ ثعلب والمبرد؛ وأهله ذلك لكي ينتخب من آرائهما آراءه النحويه، ولم يكتف بذلك فقد حاول النفوذ إلى بعض الآراء الجديدة، وكان في أول أمره كوفياً، فعني ببسط العلل لآراء الأئمة الكوفيين، تسعفه في ذلك ثقافة منطقية عميقة، وجعله ذلك يصطبغ بصبغة كوفية، حتى بعد استقلاله عن تلك المدرسة، وقد ألف فيها وفي المدرسة البصرية كتابه "اختلاف البصريين والكوفيين" وله وراءه كتب في النحو والتصريف، وكتاب مهم في علل النحو قال القدماء إنه كان يقع في ثلاثة مجلدات، ولعله هو الذي عرض فيه احتجاجاته لآراء المدرسة الكوفية. ويعرض كتابنا المدارس النحوية ما اختاره من آراء المدرسة البصرية وكذلك من آراء المدرسة الكوفية، ثم ما نفذ إليه من آراء اجتهادية انفرد بها من دون غيره من أئمة المدرستين. وهو بذلك مثل دقيق من أمثلة المدرسة البغدادية التي كانت تمزج بين آراء المدرستين السالفتين وتحاول أن تتخذ لنفسها آراء جديدة فريدة. والزجاجي[٢] هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق المتوفى سنة ٣٣٧ تلميذ الزجاج البصري، وله مصنفات كثيرة، طبع منها كتاب الجمل وهو مختصر في النحو كانت له شهرة مدوية في العصور الوسطى وشرح شروحاً لا تكاد تحصى، وطبع أيضاً له أماليه الوسطى مع تعليقات للشنقيطي، ومجالس العلماء وهي مناظرات بينهم في مسائل لغوية ونحوية، وكتاب الإيضاح في علل النحو، وقد عرض فيه علل النحو عند البصريين والكوفيين ملاحظاً أن ابن كيسان وأضرابه من الجيل البغدادي الأول هم الذين وضعوا للنحو الكوفي أكثر علله واحتجاجاته، وقد يضيف من عنده وجوهاً من العلل، يدعم بها العلل الكوفية والبصرية جميعاً. وهو بالمثل في النحو ينتخب من آراء الطرفين ويضيف آراء جديدة، وإذا كان ابن كيسان تتضح عنده نزعة كوفية فالزجاجي على العكس تتضح عنده نزعة بصرية، إذ كثيراً ما يقف مع

---

[١] أنظر في ابن كيسان تاريخ بغداد ٣٣٥/١ وإنباه الرواة ٥٧/٣ ومعجم الأدباء ١٣٧/١٧.

[٢] أنظر في الزجاجي إنباه الرواة ١٦٠/٢ والأنساب السمعاني الورقة ٢٧٢ ونزهة الألباء (طبعة الحلبي) ص٣٠٦.

البصريين مناضلاً مدافعاً، وكأنه كان إرهاصاً لغلبة النزعة البصرية على النزعة الكوفية في المدرسة البغدادية، على نحو ما سيتضح فيما بعد عند أبي على الفارسي وابن جني.

ونشطت في العصر الأنظار البلاغية، وفي كتابنا "البلاغة تطور وتاريخ" ما يصول مراحل نشأتها في العصر العباسي الأول ونموها في العصر، فقد مضى كثيرون من الكتاب مثل ابن المقفع ومن الشعراء مثل بشار يبدون بعض ملاحظات بلاغية على ما يكسب الكلام حسناً وجمالاً حتى إذا ظهر مسلم بن الوليد اتخذ ما اكتشفه الأدباء من محسنات مذهباً وأطلق عليه لأول مرة اسم البديع، وكان يشمل وجوه حسن بيانيه وبديعية، وأخذ اللغويون من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة في هذه الأثناء يبدون بعض ملاحظات على وجوه الحسن في الكلام، وألف الأصمعي كتاباً في التجنيس وسجل بعض ألوان هنا وهناك مثل الطباق والالتفات، في حين عني أبو عبيدة معاصره- وخاصة في كتابه "مجاز القرآن- ببيان بعض الخصائص البلاغية مثل التقديم والتأخير والتشبيه والكناية والاستعارة. وأخذ المتكلمون- وخاصة المعتزلة- يعنون بالبحث في وجوه البلاغة، وجعلهم ذلك يحاولون التعرف على ما عند الأمم الأجنبية منها وأضافوا إليه كثيراً من ملاحظاتهم. ومضى اللغويون والأدباء طوال القرن الثالث للهجرة يحاولون التعرف على مواطن الجمال والبلاغة في الكلام، ونثر ابن قتيبة في كتابه: "تأويل مشكل القرآن" ملاحظات متنوعة عن الخصائص البيانية والأسلوبية، على حين ألم المبرد في كتابه "الكامل" بالكناية والتشبيه؛ وفصل القول فيهما تفصيلاً جيداً، وانسابت من ذلك كله مسارب إلى كتاب قواعد الشعر لثعلب. غير أن هذه الجهود كلها ليست شيئاً بالقياس إلى ما نثره الجاحظ المعتزلي المتكلم المتوفى سنة ٢٥٥ في كتابيه "البيان والتبيين" و "الحيوان" وهو يتحدث طويلاً عن فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي شاعت فيما بعد عند البلاغيين، ويتسع في الحديث عن الإيجار والإطناب ومواضعهما وعن أصوات الكلام وموسيقاه ومواقع الألفاظ ومواضعها التي لا تعدوها وعن السجع والازدواج والاقتباس، وحلل الاستعارة بأقسامها المختلفة تحليلاً بديعاً، وألم بالتشبيه وبكثير من فنون البديع واستنبط فناً جديداً منها هو المذهب الكلامي. وبذلك كان يعد المؤسس الحقيقي لمباحث البلاغة العربية.

وأخذت تتضح منذ مطالع العصر بيئات[١] ثلاث تتناول كل منها البلاغة تناولاً متميزاً، وهي بيئة اللغويين المحافظين وبيئة المتفلسفين والمترجمين المجددين وبيئة المعتزلة المعتدلين، أما البيئة الأولى فكانت تحاول بكل ما استطاعت أن تفرض المثال العربي القديم، فهو النموذج الذي يحسن أن يحاكي، وكل ما سواه غث سقيم، وأخذت تتجه إلى ملاحظات نحوية ولغوية مدرسية على نحو ما يتضح في كتاب الموشح للمرزباني. وأما البيئة الثانية بيئة المتفلسفة والمترجمين

---

[١] أنظر في هذه البيئات كتاب البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص٦٢ وما بعدها.

فكانت مجددة مسرفة في التجديد، إذ رأت من الواجب أن تتخذ الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أصولاً في تقويم البلاغة العربية، مما جعل البيئة اللغوية تعلن النكير عليها وكان يقف معها أصحاب البلاغة العربية الخالصة وكانوا أكثر نفراً وأنصاراً لما قلناه في غير هذا الموضع من أنه سادت في العصر نزعة محافظة غلبت فيه على كل شيء وكان طبيعياً أن تغلب على الذوق الأدبي العام. وكان المتكلمون– وفي مقدمتهم المعتزلة– يقفون موقفاً معتدلاً بين الطرفين المتعارضين، إذ يقرءون ما لدى الأجانب من مقاييس بلاغية ويقرنونه إلى أنظار العرب في البلاغة، بل إنهم يخضعونه للذوق العربي الأصيل ومقاييسه على نحو ما يتضح عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، وبذلك التحموا بالبيئة اللغوية المحافظة. وكان حرياً بالمتفلسفين ورفقائهم من المترجمين أن يثوبوا إلى رشدهم وينضموا إلى المتكلمين في موقفهم السديد، ولكن المسألة لم تكن مسألة عقلية أو منطقية يحتكم فيها إلى المنطق والعقل، بل كانت مسألة شعوبية، فهي التي أمدتهم في هذا الموقف بوقود زل من الخصام والجدال والحجاج، وكانوا لا يزالون يدعون أن كل ما شغف به الشعراء لهذا العصر من محسنات بيانية وبديعية إنما مرده إلى البلاغة اليونانية، ولذلك تصدى لهم ابن المعتز في كتابه "البديع" يشبت أن فنونه التي يلهجون بها فنون عربية خالصة، إذ تتعمق في القدم حتى العصر الجاهلي، وكل ما للمحدثين من أمثال بشار وأبي تمام إنما هو الإكثار منها، وهو إكثار جعلهم– كما يقول– يحسنون فيها تارة، وتارة يسيئون إساءة شديدة. ومضى في الكتاب يدرس فنونه الأساسية، وهي عنده خمسة، الاستعارة والتجنيس والطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامي، وإنما خص هذه الفنون بالدراسة لأنها كانت موضع الأخذ والرد بين أصحاب الفلسفة وأصحاب البلاغة العربية الخالصة. على أنه لم يلبث أن ضم إليها ثلاثة عشر فناً بسطها بسطاً، وهي الالتفات والاعتراض والرجوع والخروج من معنى إلى معنى وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض والكناية والإفراط في الصفة والمبالغة وإعنات الشاعر نفسه في القوافي أو ما سمي فيما بعد باسم لزوم ما لا يلزم وحسن الابتداءات. ويمكن أن نضم إلى هذا المبحث المفصل في البديع وفنونه مبحثاً لابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ في كتابه "عيار الشعر" جعل موضوعه التشبيه، مفصلا القول في أنواعه تفصيلاً دقيقاً.

ولم تقف البيئة الفلسفية مكتوفة الأيدي أمام ابن المعتز وكتابه البديع، فقد تجرد منهم كثيرون لنقل كتابي الشعر والخطابة لأرسطو، واشتهر نقل متى بن يونس لأولهما ونقل إسحق بن حنين لثانيهما. ولم يلبث قدامه المتوفى سنة ٣٣٧ الذي اشتهر حينئذ بثقافته الفلسفية أن حاول صنع تشريع لبلاغة الشعر العربي مستضيئاً من حين إلى حين بما كتبه أرسطو في كتابه الشعر، وسمي صنيعه "نقد الشعر". ولن نعرض الآن لما في الكتاب من نقد فسنعرض له عما قليل، إنما

نعرض لما فيه من حديث عن المحسنات البديعية، وقد حاول جاهداً أن يبدل ويعدل في بعض المصطلحات التي وضعها ابن المعتز معارضة له، وكأنه إنما ألف كتابه محادة لكتاب البديع، واستطاع أن يضيف إلى محسنات ابن المعتز الثمانية عشر ثلاثة عشر محسناً جديداً أهمها الترصيع والغلو وصحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير والتتميم والمبالغة والإشارة والإرادف والتمثيل. وبعضها يتداخل مع محسنات ابن المعتز. وكتاب ثان أنتجته بيئة المتفلسفة هو كتاب البرهان في وجوه البيان لإسحق ابن سليمان بن وهب، وكان معاصراً لقدامة، ويتضح فيه أنه يريد أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية وما كتبه فيها أرسطو عن الشعر والخطابة بأقوى مما أول قدامة، حتى لنراه يضيف إلى انتفاعه بكتابي أرسطو السالفين كتابيه في المنطق والجدل، مازجاً ذلك بمباحث المتكلمين وفقهاء الشيعة، وكأنما تستعجم البلاغة عنده، وقد حاول أن يطبق بعض ما ذكره أرسطو من وجوه البلاغة، ولكنه فاته في كثير من الأحوال أن يحسن هذا التطبيق، واقترح بعض ألقاب ومصطلحات جديدة لم يكتب لها الذيوع كما كتب لنظائرها عند قدامة وابن المعتز، ويبدو أن أصحاب البلاغة العربية التالين ضاقوا به وبكتابه، فلم يذكروه ولم ينقلوا عنه. وكان ذلك سبباً فيما بعد، لأن ينصرف الناس عن هذه البلاغة الأعجمية وأذواق أصحابها المتفلسفين، وأن يستميلهم المتكلمون المعتدلون ببحوثهم البلاغية، حتى ليسيطرون ببحوثهم على العصور والأجيال التالية.

وإذا كانت البلاغة خطت خطوات واسعة في سبيل تحولها إلى علم في هذا العصر فكذلك النقد خطا بدوره خطوات كثيرة نحو تقنين مسائلة، ولا بد من ملاحظتين قبل الحديث فيه، أولاهما أن أكثر الكتب التي عرضنا لها في البلاغة عرضت له، وثانيتهما أن البيئات اللغوية والاعتزالية والفلسفية التي تحدثنا عنها في البلاغة هي نفسها التي حاولت أن تشرع النقد وأن تضع له معاييره ومقاييسه. وأولى هذه البيئات البيئة اللغوية المحافظة، وقد هاجم الجاحظ ذوقها في غير موضع من كتاباته[١]، ولعله كان يأخذ عليها اهتماماً بالغريب في الأشعار ونسيانها أو إهمالها جوانب الجمال والبلاغة فيها، مما جعله يؤلف كتابه "البيان والتبيين" على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع. ومن المحقق أن روحها كانت محافظة، ولكن من المحقق أيضاً أنها هي التي نقدت الشعر القديم لأول العهد به، وهي التي ميزت وثيقة من من حوله، مع كثير من الأحكام واللفتات النقدية الجديدة، ولعل كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣١ خير ما يصور عمل هذه البيئة المحافظة حتى عصره، ونراه يعرض فيه قضية الانتحال في الشعر القديم عرضاً علمياً رائعاً، موضحاً عب القبائل والرواة المختلفين به ومدى ما دخله من فساد، ثم تقدم يضع الشعراء في طبقات حسب جودتهم الفنية، راوياً لكل منهم كثيراً مما صححته البصرة له

---

[١] البيان والتبيين ٣/٣٢٤.

وخاصة في العصر الجاهلي. ونمضي إلى العصر العباسي الثاني فنلتقي بثعلب وكتابه "قواعد الشعر" وهو كتيب مدرسي جاف وزع فيه الشعر توزيعاً نحوياً على أربعة أنواع: أمر ونهي وخبر واستخبار، وتحدث عما تجري فيه من أغراض الشعر ومن التشبيه، وعرض لبعض ملاحظات نقدية سطحية، وليس في الكتاب نظرية نقدية، إنما هي لمحات سريعة، وقد سمي الطباق الأضداد وسمي الجناس والمطابق، وتابعه في التسمية الأخيرة قدامة. والكتاب لا يضيف إلى النقد العربي شيئاً ذا قيمة يمكن الوقوف عنده. وفي الحق أن البيئة اللغوية أخذت تتخلف في مجال النقد، على نحو ما تخلفت في مجال الدراسات البلاغية، إذ لم يعد يلقانا فيها سوى ملاحظات طائرة كأن نجد عند المبرد في كتابه "الكامل" كلمة هنا أو هناك عن صحة المعنى أو جزالة اللفظ أو رداءته أو عوار الفكرة أو استغلالها أو ضرورة الشعر والموسيقى، وشركة في مثل هذه الملاحظات كثير من اللغويين بحيث نراهم يخصصون كتباً في أخطاء الشعراء مثل كتاب أخطاء أبي تمام في الألفاظ والمعاني لأحمد بن عبيد الله بن عمار المتوفى سنة ٣١٩.

وإذا كانت البيئة اللغوية لم تستطع أن تتطور مع روح العصر في نقدها، بل ظلت به عند فقد لغوي جاف لا يكون نظرية ولا ما يشبه نظرية فإن بيئة المعتزلة استطاعت أن تتمثل في نقدها روح العصر مع المحافظة على روح العربية والتقاليد الموروثة، ومر بنا في الحديث عن البلاغة أنها كانت توازن بين معايير البلاغة اليونانية ومعاييرها العربية وأنها لم تحاول أن تعلي الأولى على الثانية، إنما حاولت أن تفيد منها بدون أن تطغى على الفكر العربي وبيانه وبلاغته. ويمكن أن يلاحظ ذلك بوضوح عند بشر بن المعتمر المعتزلي المشهور وقرينه أو معاصره الجاحظ، أما بشر فنراه في الصحيفة التي دونها له الجاحظ في البيان[١] يدعو إلى الملاءمة بين الكلام وأحوال السامعين ونفسياتهم، وهي فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي كانت شائعة عند اليونان في أحاديثهم عن البلاغة والنقد، كما يدعو إلى البعد عن التكلف واستكراه المعاني والألفاظ وتجنب الغريب المتوعر في الألفاظ والتراكيب، وينفذ إلى فكرة طريفة هي أن شرف المعنى لا يرجع إلى أنه من معاني الخاصة أو من معاني العامة، فكل في موضعه شريف، ومدار الشرف على الملاءمة بين الكلام ومقامه، ويدعو في قوة إلى تبسيط الأسلوب وجعله في لغة وسطى بين لغة البدو الجافة الخشنة وبين لغة العامة المسفة المبتذلة. ويخلفه الجاحظ، وتستعر نار المتفلسفة والشعوبية جميعاً، فينادي بأن مدار الجمال في القرآن الكريم إنما يعود إلى نظمه التي تتقطع الرقاب دون محاكاته، ويمد في قوة ملاحظة بشر عن اللغة الوسطى، حتى يتلاءم مع الحداثة ومع روح العصر، فالألفاظ يجب ألا تكون ساقطة عامية ولا غريبة وحشية، ويجب أن يلائم الخطيب بين كلامه والسامعين فلا يورد خطيب على الجماهير اصطلاحات المتكلمين، وللإيجاز

---

[١] البيان والتبيين ١/١٣٥ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص٤٣.

موضع وللإطناب موضع لا في الألفاظ وحدها، بل أيضاً في الأساليب، ويلاحظ أن للأديب شاعراً أو ناثراً معجمه اللغوي الخاص، وهي ملاحظة دقيقة، وعرض طويلاً للفظ وفصاحته وجزالته ورقته وتناسبه مع ما قبله وما بعده في الكلام حتى لكأن واشجة من الرحم تربط بينه وبين الأسرة اللفظية التي يسلك فيها. وأنكر الترادف ذاهباً إلى أن لكل لفظة معناها الخاص الذي يفترق قليلاً أو كثيراً عن معنى أو معاني مرادفها، وعاب مراراً التكلف وفرق بينه وبين التنقيح. وجعله إعجابه باللفظ المونق يشيد به مضائلاً من المعاني وقيمتها، وكأنما كان يريد أن يسقط إلى الأبد ما تقوله الشعوبية عن كثرة المعاني في الآداب الأعجمية؛ وكذلك ما تقوله البيئة المتفلسفة عن المعاني الفلسفية اليونانية، إذ هي تحمل أفكاراً صحيحة، ولكن ينقصها جمال الصياغة وحسن السبك والرصف والنظم. ومع إعجابه بالشعر العربي القديم كان يعجب بالشعر الحديث، حتى ليفضل أبا نواس على كل ما سبقه من الشعراء[١]. وهو معنى ما نقول من اعتدال المعتزلة وأنهم كانوا يوازنون بين القديم والحديث وبين معايير النقد العربي واليوناني ملائمين بين ذلك كله نافذين إلى نقد عربي عباسي حديث.

وأفاد ابن قتيبة من نظرات الجاحظ النقدية إفادة واسعة، مع أنه لم يكن من المعتزلة بل كان من أهل السنة، ولكنه اشترك معه كما مر بنا في غير هذا الموضع في الرد العنيف على الشعوبية، ونراه يكتب مقدمة طويلة لكتابه الشعر والشعراء يضمنها كثيراً من آرائه النقدية، وتارة يوافق الجاحظ في بعض آرائه وتارة يخالفه، فما وافقه فيه رفض معيار القدم والحداثة في الحكم على الشعراء فلا ينظر إلى متقدم بعين الجلالة ولا إلى متأخر بعين الاحتقار، بل يوزن كل منهما بموازين الجودة الفنية الدقيقة. ووافقه في فكرة الطبع والتكلف، واستعار قبساً من فكرته عن المطابقة بين الكلام وأحوال النفس استضاء به في بيان الدوافع النفسية التي تبعث على قول الشعر كالطمع والغضب والشوق والطرب، كما استعار قبساً من فكرة بشر بن المعتمر عن الأديب ألا يقبل على عمله إلا إذا كان مستعداً له استعداداً كاملاً، فتحدث عن العلاقة بين الشاعر والأوقات التي يستحب فيها نظم الشعر. وخالف الجاحظ في قصر الجمال الفني على اللفظ فجعله شركة بينه وبين المعنى، فقد يحسن اللفظ والمعنى معاً وقد يقبحان معاً، وقد يحسن أحدهما ويقبح الآخر. وكل ذلك كان يبشر بأن ابن قتيبة لن يرتد إلى الوراء أو خاصة أنه سوى

---

[١] الحيوان ٢٧/٢ وانظر في تحليلنا لآرائه كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ٤٦ وما بعدها وكتابنا "النقد" (طبع دار المعارف) وقد أشرنا فيه على حديثه عن السرقات ، وهو أول من فتح بابها على مصراعيه للنقاد، وقد أخذوا في أواخر هذا العصر يخصون بعض الشعراء بمباحث مستقلة فيها مثل كتاب سرقات أبي نواس ليموت ابن المزرع المتوفي سنة ٣٣٤ وسرقات البحتري لأحمد بن أبي طاهر المتوفي سنة ٢٨٠.

بين القدم والحداثة في الشعر ولكنه عاد فطلب إلى الشاعر ألا يحيد عن منهج المتقدمين في نظام القصيد. ونلتقي في أواخر العصر بناقد يتأثر بالجاحظ في كثير من آرائه النقدية، كما يتأثر بابن قتيبة في رده الجمال الفني إلى اللفظ والمعنى معاً، وهو ابن طباطبا صاحب عيار الشعر، ونراه في مواضع من كتابه يشير إلى تماسك المعاني وارتباط أول الكلام بما يليه، ويشدد في وحدة السياق وأن تتواصل أبيات القصيدة حتى تغدو بناء محكماً بل حتى تغدو كأنها جسد واحد لا يمكن وضع عضو فيه مكان عضو آخر، وكأنما أحس ما يردده النقاد في هذا العصر من فكرة الوحدة العضوية في القصيدة بحيث يطرد فيها التناسق والالتحام حتى تصبح كلا واحداً، بل حتى كأنها لفظة واحدة ومعنى واحد[١].

ولم نتحدث حتى الآن عن البيئة الثالثة بيئة المتفلسفة في النقد، ولعل خير من يمثلها قدامة في كتابه "نقد الشعر" وهو في مطالعه يصرح ولا يجمجم بأنه إنما سيعني بعلم جيد الشعر ورديئة وأن أحداً لم يسبقه إلى وضع هذا العلم في العربية. ويجعل الكتاب في ثلاثة فصول، يخص أولهما بتعريف الشعر وبيان أجزائه، والثاني بنعوت الجودة في الشعر، والثالث بنعوت الرداءة. ويقف عند تعريف الشعر وقفه منطقية يستمد فيها بوضوح من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها، ويبدو هنا أنه لم يفهم نظرية أرسطو في المحاكاة وأن المعول في الشعر عليها لا على الوزن، وجاءه ذلك من سوء الترجمة لكتاب الشعر عند متى بن يونس فإن كثيراً من معاني الكتاب في الأصل طمست طمساً، وهو ما جعل قدامه يضطرب في الإفادة منه على صور شتى. وأجزاء الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية، ويقول إن نعوت الجودة تتصل بكل منها مفردة ومركبة، ونراه يتأثر في هذا الفصل بنظرية الحدود الوسطى التي شغف بها أرسطو في حديثه عن الأخلاق، ويفيض في الفصل الثاني في الحديث عن نعوت الجودة، ويعرض لأغراض الشعر، ويحاول متأثراً بطريقة أرسطو أن يضع لها قواعد كلية عامة، وهو في هذه القواعد يستمد كثيراً من كتابي الخطابة والشعر لأرسطو، وكأنه يريد بكل ما يستطيع من قوة أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية، وخانه التوفيق في كثير من الأحيان، ولولا ما أضافه إلى ابن المعتز من بعض فنون البديع لتناسي النقاد التالون كتابه ولم يلتفتوا إليه أي التفات[٢].

ولابد أن نلاحظ بصفة عامة أن الذوق الذي كان مسيطراً على النقد والشعر جميعاً كان ذوقاً محافظاً، وكان طبيعياً أن يرفض فقد المتفلسفة المفرطين في التجديد. وكان من المنتظر للغويين الذين يمثلون بدقة النزعة المحافظة أن يسيطروا على الحركة النقدية ولكنهم لم يستطيعوا لسبب

---

[١] راجع في تحليل عيار الشعر كتاب البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٣.

[٢] أنظر في تحليل نقد الشعر كتاب البلاغة تطور وتاريخ ص٨٧.

مهم، وهو أنهم لم ينفذوا إلى وضع نظرية أو أصول من شأنها أن تشيع، ولذلك سيطر المتكلمون الذين استطاعوا أن يضعوا للنقد أصولاً ورسوماً واضحة، وساعد على سيطرتهم أنهم لم يكونوا يرفضون القديم بل كانوا يوازنون بينه وبين روح العصر كما أسلفنا، وبذلك ظلوا يحافظون للشعر على تقاليده الموروثة.

ونشطت في العصر الكتابات التاريخية نشاطاً عظيماً فمن كتابه في تاريخ السيرة النبوية إلى كتابة في الأحداث الإسلامية والأمم والدول، وكتابة في المدن، وكتابة في التراجم والطبقات، ومر بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن ممن عنوا بالسيرة النبوية حينذاك ابن إسحاق وراوي سيرته ابن هشام والواقدي ومحمد بن سعد في كتابه الطبقات وكذلك المدائني أبو الحسن على بن محمد المتوفى سنة ٢٣٤، وله كتب ورسائل كثيرة في السيرة النبوية وفي تاريخ القبائل والخلفاء بلغت عند ابن النديم نحو ٢٣٠ مصنفاً. ومن أهم المؤرخين للسيرة النبوية في العصر أبو زرعة[١] عبد الرحمن بن عمرو الحافظ شيخ الشام في وقته المتوفى سنة ٢٨٢، وفي مكتبة الفاتح باستنبول مخطوطة من هذه السيرة. وكتب كثيرون في الأحداث الإسلامية وفي تاريخ الأمم والدول منهم اليعقوبي الذي مر ذكره بين الجغرافيين وتاريخه في ثلاثة أجزاء طبع بأوربا وبالنجف في العراق، ومنهم البلاذري[٢] أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩، وله كتاب فتوح البلدان المعروف نشره دي خويه بليدن في القرن الماضي ونشر بالقاهرة مراراً، وله كتاب أنساب الأشراف في التراجم والتاريخ طبعت منه بعض أجزاء وبعض قطع ويعاد نشره كاملاً في دار المعارف بالقاهرة. وكان يعاصره أبو حنيفة[٣] الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ صاحب كتاب الأخبار الطوال المنشور أولاً بليدن، ثم بعد ذلك في القاهرة، ونراه يستهله بالحديث عن تاريخ الإسكندر والفرس ودولتهم الساسانية، ثم يتحدث عن فتوح العراق وحروب صفين وتاريخ الأمويين وما كان فيه من مقتل الحسين وأحداث المختار بن أبي عبيد، ثم يوجز في الحديث عن الخلفاء من عبد الملك إلى المعتصم. وأتاحت ترجمة تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس في العصر العباسي الأول والكتابات الكثيرة عن الرسل والأنبياء لمحمد[٤] بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ أن يكتب تاريخه الضخم: "أخبار الرسل والملوك"، وهو تاريخ للعالم منذ بدء الخليقة حتى عصره، ونراه حين يصل إلى تاريخ الهجرة النبوية ينهج في الكتاب منهج الحوليات فكل سنة مستقلة

---

[١] أنظر في أبي زرعة تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٧٤/٧ والنجوم الزاهرة ٨٧/٣.

[٢] أنظر معجم الأدباء ٨٩/٥ والنجوم الزاهرة ٨٣/٣ والفهرست ص١٧٠.

[٣] راجعه في الفهرست ص ١٢٢ ومعجم الأدباء ٢٦/٣.

[٤] أنظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٦٢/٢ ومعجم الأدباء ٤٠/١٨ وتذكرة الحفاظ ٢٥١/٢ وطبقات القراء ١٠٦/٢ وطبقات الشافعية ١٢٠/٣.

بأحداثها حتى إذا تمت أيامها انتقل إلى السنة التالية حتى يصل إلى سنة ٣٠٢ واتبع طريقة المحدثين، فكل خبر وكل حادثة تروي مع إسنادها، وتتعدد الروايات ويتعدد الإسناد ليقابل المؤرخ الحصيف بين الروايات مع رواتها ويستخلص منها الخبر الصحيح، وله نشرات مختلفة في ليدن وفي مصر، وطبعته الأخيرة بدار المعارف محققة ومزودة بفهرس دقيق. ومن أهم المؤرخين في العصر المسعودي[١] أبو الحسن على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ وله كتب تاريخية مختلفة، وهي تتدفق بحيوية جمة، إذ أخذ نفسه بالطواف في البلدان الإسلامية في الشام وإيران والهند وزنجبار ومصر والبلاد البعيدة الخارجة عن عالم الإسلام حول بحر الخزر وركب المحيط الهندي والهادي إلى الصين في رفقة التجار، فاتسعت مداركه، ومن أهم كتبه التاريخية مروج الذهب، طبع في باريس ثم في مصر وبيروت طبعات مختلفة، وهو يبدأ فيه بتاريخ الخليقة منذ نشأتها ويتحدث عن الأمم القديمة وبلدانها ومشاهداته فيها، ثم يوجز السيرة النبوية، حتى إذا انتهى منها أخذ يتحدث عن الخلفاء خليفة خليفة حتى المطيع لله سنة ٣٣٦ وله كتاب لتنبيه والإشراف وهو موجز تاريخي، وطبع له بمصر الجزء الأول من كتابه أخبار الزمان.

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نجد كتباً خاصة ببعض المدن مثل أخبار أهل البصرة لأبي زيد عمر المتوفى سنة ٢٦٤ وتاريخ واسط لأسلم بن سهل بن زياد المتوفى سنة ٢٨٨ وتاريخ أصبهان لابن منده الأصبهاني المتوفى سنة ٣٠١ وتاريخ الموصل لأبي زكريا يزيد بن محمد الأزدي المتوفى سنة ٣٣٤ وأهم من هذه الكتب جميعاً تاريخ بغداد لأحمد بن طاهر الملقب بطيفور المتوفى سنة ٢٨٠ وهو من مصادر تاريخ الطبري، وقد نشر كلر Keller الجزء السادس منه. وذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول مدى اهتمام مؤرخي العصر بالأنساب والأيام، وظل ذلك بعدهم مستمراً إذ نرى ابن الأنباري يعني في شرحه للمفضليات بالأيام عناية واسعة، وللزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ كتاب ضخم في نسب قريش وأخبارهم، نشر منه بالقاهرة محمود أحمد شاكر مجلداً كبيراً. وألفت في العصر كتب كثيرة في رجال الحديثة للبخاري وغيره، وانتقل التأليف في الرجال إلى التأليف في الشعراء، فألف ابن قتيبة كتابه "الشعر والشعراء" وألف ابن المعتز كتابه "طبقات الشعراء المحدثين" وهما منشوران، وألف يحيى بن علي بن يحيى المنجم المتوفى سنة ٣٠٠ كتابين مفقودين هما البارع في أخبار الشعراء المولدين والباهر في أخبار الشعراء المخضرمين من بشار إلى مروان أبي حفصة. وألفت كتب في الوزراء وكتاب الدواوين مثل كتاب الوزراء والكتاب لمحمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ وهو مطبوع. وأفردت كتب لأخبار العباسيين وأشعارهم مثل كتاب الأوراق لمحمد بن يحيى الصولي

---

[١] راجع تجمته في الفهرست ص ٢٢٥ ومعجم الأدباء ٩٠/١٣ وتذكرة الحفاظ ٧٠/٣ والنجوم الزاهرة ٣١٥/٣.

المتوفى سنة ٣٣٥ وقد نشر منه المستشرق دان (Dunne) أخبار الشعراء المحدثين وهو تراجم لطائفة منهم، ونشر منه أيضاً أخبار الراضي المتقي، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، وهو كتاب جدير بالتحقيق والنشر. وأخذوا يهتموا بالسيرة الفردية، فألف أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٢ كتاباً في سيرة عمر بن عبد العزيز طبع بالقاهرة، وألف بمصر أبو جعفر أحمد بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ كتاباً في سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه. وعلى هذا النحو نشط التأليف في التاريخ لهذا العصر نشاطاً واسعاً، فمن تأليف في السير إلى تأليف في الطبقات وتأليف في الأمم والدول وتأليف في المدن، وكادوا لا يتركون في التاريخ جانباً إلا رصدوه وسجلوه ودونوه.

obeikandl.com

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه:

معروف أن القرآن الكريم حمل عن الرسول صلى الله عليه وسلم تلاوة ومشافهة، واشتهر بتلاوته قراء مشهورون منذ الصدر الأول في مقدمتهم الخلفاء الراشدون وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري وغيرهم من جلة الصحابة أمثال عبد الله بن عباس، وخلفتهم أجيال من التابعين في كل بلد إسلامي، كلهم يحافظون على تلاوته بجميع حروفه وحركاته كما أثرت عن الرسول الكريم، وأخذوا يعدون بالعشرات، وأخذ يتبع كل قارئ منهم تلاميذ يلازمونه ويأخذون عند قراءته بأدق صورة ممكنة، وفي الوقت نفسه أخذ قراء موثقون يروون قراءات عن ابن مسعود إمام أهل الكوفة أو عن علي بن أبي طالب أو عن غيرهما من جلة الصحابة، فتكاثرت القراءات، حتى لنجد أبا عبيد القاسم بن سلام يؤلف كتاباً يحتوي على أكثر من عشرين قراءة ونمضي بعده إلى العصر العباسي الثاني، فتستمر القراءات في كثرتها، وتبدو الحاجة واضحة إلى عالم القراءات يختار منها طائفة تذيع وتنتشر في العالم الإسلامي، ويؤكد الحاجة إلى ذلك أن بعض القراء كان لا يجد حرجاً في القراءة بشواذ منها متناهية في الشذوذ[١]، وحينئذ تجرد للنهوض بهذه المهمة الخطيرة أبو بكر أحمد[٢] ابن موسى بن مجاهد التميمي إمام القراء ببغداد منذ سنة ٢٩٠ فأكب على القراءات وكتبها المصنفة، واستخلص منها سبعاً هي قراءات نافع في المدينة وعبد الله بن كثير في مكة وعاصم وحمزة والكسائي في الكوفة وأبي عمرو بن العلاء في البصرة وعبد الله بن عامر في دمشق، اتخذها إماماً للناس، وألف في ذلك كتابه السبعة، وكل من يراجعه يرى الجهد الهائل الذي أداه عن علماء القراءات في عصره، فكل إمام من السبعة تذكر الطرق التي روي بها ابن مجاهد قراءته، وينص في الكتاب على الاختلاف بين الطرق للإمام الواحد فضلاً عن الطرق مجموعة لكل الأئمة. وانبري من بعده

---

[١] أنظر في ذلك مقدمتنا لكتاب السبعة لابن مجاهد (طبع دار المعارف) حيث أوضحنا هناك موقف ابن مجاهد من معاصره ابن شنبوذ لقراءته حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه، وكذلك موقفه من ابن مقسم العطار لقراءته حروفاً تخالف الإجماع وإن كانت موافقة لخط المصحف العثماني ومعروف أنه لم يكن منقوطاً، فكان يصحف بعض الكلمات ويستخر لها وجوهاً ظنية.وكل منهما ناظره ابن مجاهد واعترف بخطئه وتوبته من صنيعه بحضرة القراء والفقهاء.

[٢] أنظر في ترجمة ابن مجاهد طبقات القراء لابن الجزري ١٣٨/١ وطبقات الشافعية ٥٧/٣ والنجوم الزاهرة ٢٥٨/٣.

obeikandl.com

تلميذه أبو علي الفارسي لكتابة شرح على هذا المصنف: "السبعة" يحتج فيه لوجوه القراءات المبثوثة به وجهاً وجهاً، سماه كتاب الحجة. وألف ابن مجاهد كتاباً ثانياً في شواذ القراءات، عني ابن جني بشرحه على نحو ما عني أستاذه أبو علي الفارسي بشرح السبعة، سماه المحتسب، وهو محقق ومنشور بالقاهرة.

ونما تفسير القرآن الكريم في هذا العصر نمواً واسعاً، واتضحت فيه اتجاهات أربعة سيطرت على اتجاهاته في العصور التالية، هي اتجاه التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي أو التفسير الاعتزالي، والتفسير الشيعي، والتفسير الصوفي، أما التفسير بالمأثور فقد بلغ القمة المرجوة التي كانت تنتظره عند محمد بن جرير الطبري، إذ استطاع أن يجمع في تفسيره عن طريق الروايات المسندة كل ما أثر عن التابعين والصحابة في تفسير الآي القرآنية. وكان الصحابة يحملون كل ما ذكره الرسول من تفسير لبعض آياته وبعض كلماته. وتفسير الطبري من هذه الناحية يمكن أن يستخلص منه تفسير الرسول عليه السلام، وكذلك من عرفوا بكثرة التفسير من الصحابة والتابعين مثل ابن عباس وابن مسعود وتلاميذهما من مثل مجاهد وعكرمة. ومما يلاحظ عنده أنه لم يتوسع في حمل الإسرائيليات، إذ كان يرى أنه لا غناء فيها وخاصة في التفاصيل التي لا يضر الجهل بها، كمسألة المائدة التي أنزلت على عيسى في سورة المائدة في الآيات ١١٢ إلى ١١٥ فإنه وجد عند أصحاب الإسرائيليات من يتحدثون عما كان عليها من طعام هل كان سمكاً أو خبزاً أو ثمراً من ثمار أهل الجنة فقال إن العلم بذلك غير نافع، وبالمثل الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف إذ باعه إخوته (بثمن بخس دراهم معدودة) فقد وجدهم يتساءلون عن عدد الدراهم. هل كانت عشرين أو اثنين وعشرين أو أربعين، فأضرب عن ذلك قائلاً إنه "ليس في العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع في دين ... الإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه". ودائماً يذكر مع كل آية القراءات المختلفة فيها، ويعرض لمعنى الكلمات من الوجهة اللغوية ويستشهد عليه بالأشعار الجاهلية والإسلامية، وكثيراً ما يفضل شرح معنى للفظ على شرح معنى آخر. وكان يأخذ بفكرة حرية الإرادة التي أخذ بها المعتزلة، ولكنه لم يتعصب لهم، بل جادلهم في بعض آرائهم وردها عليهم من مثل رأيهم في الرؤية البصرية لله وتأويلهم لها ويعلن مراراً أنه يقف مع السلف كما في الآية رقم ٧٤ من سورة البقرة وأنه يحسن أن يراعى المفسر المعنى الظاهر للفظ بدون تأويل، والأساس الذي لا محيد عنه هو عرض أقوال الصحابة والتابعين وعلماء الأمة لتبين معاني لتنزيل الصحيحة الدقيقة.

ومنذ القرن الثاني يرجع المعتزلة إلى القرآن مفسرين مستشهدين ومتمثلين، محتكمين إلى عقولهم، ومحاولين أن يطابقوا بينه وبين آرائهم، وأداهم ذلك إلى أن يحملوا منذ أول الأمر على أصحاب التفسير بالمأثور الذين كانوا يقفون أحياناً مع ظاهر الآيات. وكانوا أحياناً لا يحكمون

عقولهم فيما يسمعون، فيروون غرائب لا يصدقها العقل السليم، وفي الجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ حملات شعواء للنظام على أمثال هؤلاء المفسرين، وكان طبيعياً ألا يقفوا عند تفسير آيات بعينها تخالف آراءهم الاعتزالية، بل يحاولوا بسط هذه الآراء في تفسير القرآن جميعه، وأول تفسير عندهم هو تفسير أبي بكر الأصم المتوفى حوالي منتصف القرن الثالث وتفسيره مفقود، وأهم منه تفسير أبي على الجبائي محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٠٣، وهو بيد بعض المحققين بالقاهرة في سبيل نشره، ولابد أنه يمتلئ بالتأويلات الاعتزالية، ولا ريب في أن الزمخشري انتفع به في تفسيره انتفاعاً كبيراً.

وتأويلات المعتزلة لأي الذكر الحكيم إنما كانت تأويلات عقلية وكان وراءهم فريقان يؤولان القرآن تأويلات اعتقاديه، وهم الشيعة والصوفية، وكان الشيعة يخرجون عن ظاهر القرآن ملتمسين تأويلات بعيدة، إذ يذهبون إلى أن لفظاً بعينه يقصد به على أو غيره من أئمتهم وأن لفظاً آخر يقصد به خصم من خصومهم، وصور ذلك ابن قتيبة عنهم، فقال إن منهم من يزعم أن الجبت والطاغوت في الآية رقم ٦٠ من سورة النساء هما معاوية وعمرو بن العاص[١]. ونسبوا لأئمتهم تفسيرات مبكرة، في مقدمتها تفسير نسبوه إلى عفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ وتفسير ثان نسبوه إلى الحسن العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ وهو آخر الأئمة الظاهرين عند الإمامية وتفسيراتهم من هذه الناحية تطبع بطابع الرواية عن أئمتهم وآل البيت بعامة. أما تأويل المتصوفة حينئذ فلم يكن يبعد عن ظاهر اللفظ بعد التفسير الشيعي، إذ كان كل مأربه أن يوضح من خلال بعض الآيات بعض الأفكار الصوفية، وربما كان أقدم تفسير لهم هو تفسير سهل التستري المتوفى حوالي سنة ٢٨٣ ونراه في آية سورة النور: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ– إلى قوله: وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) يجعل النور المحمدي في سابق الأزل أساساً للآية. وكأن سهلاً سبق الحلاج في فكرة النور المحمدي الأزلي.

وقد عرضنا في كتاب العصر العباسي الأول لتطور منهج التأليف في الحديث النبوي وأنه بدأ بتصنيفه على أبواب الفقه غالباً، وأن خير ما يصور هذه الطريقة كتاب الموطأ لمالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ثم نشأت طريقة ثانية توزع فيها الأحاديث على رواتها من الصحابة، فتجمع الأحاديث مثلاً التي رواها أبو قريرة بدون نظر إلى اختلاف موضوعاتها الفقهية، فالأساس وحدة الصحابي لا وحدة الموضوع، على نحو ما هو معروف عن مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١، وظل محدثون يؤلفون على هذه الطريقة حتى نهاي هذا العصر مثل أبي عبد الله محمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤ وتوجد من مسنده مخطوطتان بمكتبة دار الكتب المصرية. وأخذت تقترن بهذه الطريقة سريعاً طريقة ثانية هي امتداد للطريقة الأولى آنفة الذكر، وكأنما رأوا أن

---

[١] أنظر تفسير غلاة الشيعة في كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٤.

الإفادة من طريقة المساند يكتنفها غير قليل من الصعوبة إذ لا بد لمن يريد الاطلاع على حديث، لراو من الصحابة في مسألة من مسائل الفقه، من قراءة كل ما له من أحاديث، وكانت دراسات الفقه نمت حينئذ واحتاج الفقهاء إلى الإطلاع سريعاً على بعض الأحاديث للاحتجاج بها في كتبهم وضد مجادليهم، وأول مصنف وصلنا من هذه الطريقة هو مصنف عبد الله بن محمد بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥، ثم ألفت مصنفاتها الستة المشهورة، وهي الجامع الصحيح للبخاري المتوفى سنة ٢٥٦ والصحيح لمسلم المتوفى سنة ٢٦١ والسنن لابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ وسنن أبى داود المتوفى سنة ٢٧٥ والجامع للترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ وسنن النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ وتعد اصح كتب الحديثة المؤلفة لا في هذا العصر وحده بل في جميع العصور. ولم يكن الاعتماد في هذه المصنفات وما يماثلها على دراسة الكتب، وإنما كان الاعتماد على الرواية ولقاء الرجال، مما جعل المحدثين يرحلون إلى الأمصار الإسلامية المختلفة يجمعون من هنا وهناك ما تفرق من الأحاديث على نحو ما هو معروف عن البخاري في تطوافه بأكثر مدن خراسان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر. وظل المحدث الكبير يعتمد على حافظته في إملائه الأحاديث، وكانوا إذا نزلوا بلداً ربما تعرضوا لامتحان العلماء لهم كي يعرفوا مدى حفظهم، ويحكى عن البخاري أنه قدم بغدد، فاجتمع اصحاب الحديث ورأوا اختباره فعمدوا إلى مائة حديث، قلبوا متونها وأسانيدها بأن جعلوا الإسناد مع غير متنه، واجتمع الناس، فألقوها على البخاري، فأنكرها حديثاً حديثاً، حتى إذا فرغوا أخذ يرويها رادا كل متن إلى إسناده، وله في ذلك حكايات أخرى عجيبة[١]. ومن طريف ما يروى في هذا الجانب أن أبا داود صاحب السنن المذكور آنفاً أن له ابن من حفاظ الحديثة هو عبد الله قدم سجستان ذات مرة، فسألوه أن يحدثهم، فقال لهم: ليس معي أصل، فقالوا متعجبين: ابن أبي داود وأصول ! وأثاروه، فأملي عليهم ثلاثين ألف حديث من حفظه، وعاد إلى بغداد فوجد المحدثين يذكرون قصته مع غير قليل من الريبة، ولم يلبثوا أن أرسلوا إلى سجستان من يكتب لهم نسخة من الأحاديث التي أملاها، فكتبت وجيء بها، وعرضت على الحفاظ، فخطأوه في ستة أحاديث، منها ثلاثة حدث بها كما سمعها، وثلاثة أخطأ فيها، وكأنه لم يخطئ في كل عشرة آلاف حديث إلا في حديث واحد[٢].

---

[١] طبقات الشافعية ٢١٨/٢.

[٢] السبكي ٣٠٨/٣.

ولابد أن نقف قليلاً عند البخاري ومسلم لنرى مبلغ دقتهما في رواية الحديثة ورفضهما لضعيفه، أما البخاري[١] محمد بن إسماعيل فقد أمضى ستة عشر عاماً يجمع صحيحه من أفواه الرواة الثقات في مختلف الأمصار، وكل حديث معه سنده من زمنه إلى زمن الصحابي رواية الأول، وهو يدرس ويفحص، حتى لا يروي إلى الحديث الصحيح الذي لا يرقى إليه شك، يفحص المتون ويفحص الرواة ليعرف المتهم من الوثيق عقيدة وقوة حافظة وخلوا من شوائب الكذب والغفلة، ولذلك كان طبيعياً أن يؤلف تاريخه الكبير في الرجال، ويروون عنه أنه كان يقول: "قل اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة" وكان عف اللسان لا يشتد في تجري المتهمين من الرواة، بل يكتفي بمثل قوله: "فيه انظر أو "سكتوا عنه" أو "هو منكر الحديث". وجمع في صحيحه– كما يقول ابن حجر في مقدمته لشرحه عليه– ٧٣٩٧ حديثاً وإذا أضفنا إلى ذلك الأحاديث التي استأنس بها بلغت أحاديثه ٩٠٨٢، ويقال إنه انتخبها من نحو مائي ألف حديث محكماً في انتخابه شروطاً غاية في الشدة، حتى يحيطها بأقوى سياج من الصحة والثقة، وأول شروطه أن يكون الإسناد متصلاً، فلا يسقط من رواته أحد، وأن يكون كل راو مسلماً، معروفاً بالصدق، عدم التدليس والتخليط، عدلاً، ضابطاً، حافظاً، سليم الذهن، قليل الوهم، سليم الاعتقاد، وكان يرى أن رواة كل إمام من أئمة الحديث يختلفون في درجة الصلة به. فأصحاب الدرجة الأولى من لازموه في السفر والحضر، ووراءهم من لم يلازموه سوى مدة قصيرة، واشترط في رواة أسانيده أن يكونوا من أصحاب الدرجة الأولى، وبذلك اشترط في الراوي المشافهة والملازمة. وقد يقال إن في الصحيح أحاديث لا يتصل فيها الرواة يريدون التي ذكرت– كما قدمنا– للاستئناس فقط، وقد أخرجها ابن حجر في عده لأحاديث الكتاب كما مر آنفاً وكتاب الجامع الصحيح يبدأ بالحديث عن الوحي والإيمان وتتوالى كتب الفقه وأبوابه، ويقحم عليها أبواباً أخرى كحديثة عن بدء الخلق والجنة والنار وتراجم الأنبياء ومناقب قريش وفضائل الصحابة والمهاجرين والأنصار والسيرة النبوية والمغازي والأطعمة والأشربة والأدب وتعبير الرؤيا. وختمه بكتاب التوحيد. وهو موزع على ٩٧ كتاباً تشتمل على ٣٤٥٠ باباً وبعضها فيه أحاديث كثيرة وبعضها فيه حديث واحد، وقد يوضع عنوان الباب دون كتابة شيء تحته، وكأنه كان ينوي أن يكتب فيما بعد تحته بعض الأحاديث وعاجله الموت. ومعروف أن الكتاب لم يكن قد وضع في صورته النهائية. وهو يعد بحق أصح كتب الحديث إذ تحرى البخاري في جمعه تحرياً ليس له سابقة ولا لاحقة في تاريخ مصنفات الحديث، باذلاً جهداً عنيفاً تنقطع دونه الأماني.

---

[١] أنظر في ترجمته تهذيب التهذيب ٤٧/٩ وشذرات الذهب ١٣٤/٢ وطبقات الحنابلة بن أبي يعلي (طبع القاهرة) ٢٧١/١ وكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (طبع حيدر آباد) ق٢ ج٣ ص١٩١ ووفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ٣٢٩/٣.

وأما مسلم فهو مسلم[١] بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ وصحيحه مثل صحيح البخاري في الثقة والمنزلة، وقد روي أكثر أحاديث البخاري ولكن بطرق أخرى غير طرق أسانيده، ورتبه على كتب الفقه وأبوابه كما صنع البخاري، ولكنه لم يستكثر منها مثله. ونراه في مقدمة صحيحه يذهب إلى أن الأحاديث ثلاثة أقسام: قسم رواه الحفاظ المتقنون لا يرقى إليه الشك، وقسم رواه المستورون المتوسطون في الحفظ وهو يهبط درجة عن سابقه، وقسم رواه الضعفاء والمتروكون، ويقول إنه إذا فرغ من رواية القسم الأول أتبعه القسم الثاني، أما القسم الثالث فإنه يهمله ولا يعرج عليه. وتصريحه بأن يروي من القسم الثاني جعل المحدثين من قديم يضعون صحيحه في منزلة دون منزلة صحيح البخاري، بل إن منهم من حمل عليه مثل أبي زرعة[٢] الرازي. على أن هناك من قدما على صحيح البخاري[٣] لأنه أدق منه تأليفاً، وساد ذلك خاصة بين حافظ المغرب فكانت كثرتهم تفضله على صحيح البخاري. والحق أنه لا يفضله من وجهة التوثيق الخالصة، لسبب مهم، وهو أن البخاري اشترط في الرواة الملازمة في السفر والحضر لمن يروون عنهم، في حين تخفف من ذلك مسلم، فاكتفى بالمشافهة والمعاصرة ولم يطلب الملازمة. ومما لا ريب فيه أن صحيح مسلم مع ذلك يعد في الذروة من التوثيق، إذ كان دقيقاً غاية الدقة، حتى إنه ليذكر الفروق بين روايات الحديث، ولو كانت حرفاً، وكان على علم لا يباري في معرفة رجال الحديثة الموثقين والمتهمين. وذكروا أن عدد أحاديثه نحو ٧٢٧٠ حديثاً. وهو مع صحيح البخاري أعلى كتب الحديثة منزلة وأوفرها حظاً من الصحة والتوثيق ويليهما الكتب الأربعة التي سميناها آنفاً والتي يطلق عليها معهما اسم كتب الصاح الستة، وهي سنن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن ماجة[٤] القزويني وقد اشتهر برحلاته الكثيرة في ديار الإسلام، وتعد هذه السنن أضعف كتب الصحاح الستة لأن ابن ماجه ضمنها كثيراً من الأحاديث الضعيفة، ويقال إنها لم توضع في سلك الكتب الستة إلا منذ المائة السادسة للهجرة، والكتاب الثاني سنن أبي داود سليمان[٥] بن الجارود بن الأشعث الأزدي السجستاني، ولم يسلك فيها غير أحاديث الفقه والتشريع، ولعله لذلك حظى بتقدير رفيع بين المحدثين. وثالث الكتب الجامع لأبي

---

[١] أنظر في مسلم تاريخ بغداد ١٠/١٣ وتذكرة الحفاظ الذهبي (طبع حيدر آباد) ١٦٧/٢ ومرآة الجنان لليافعي ١٧٤/٢ ومقدمه النووي بشرحه عليه.

[٢] تاريخ بغداد ٢٧٤/٤.

[٣] طبقات الشافعية ٢٧٦/٣.

[٤] تذكرة الحفاظ الذهبي ٢٠٩/٢.

[٥] أنظر في ترجمة أبي داود تاريخ بغداد ٥٥/٩ وتذكرة الحفاظ ١٦٧/٢ ومرآة الجنان لليافعي ١٨٩/٢ وطبقات الشافعية ٢٩٣/٢.

عيسى محمد[١] ابن عيسى بن سهل الترمذي وقد عني فيه بأحاديث الأحكام وذكر معها من احتج بها من أهل المذاهب. ولذلك كان الكتاب يفيد فائدة جلي من يعنون بدراسة الخلاف بين الفقهاء. ورابع الكتب سنن أبي عبد الرحمن أحمد[٢] بن شعيب ابن علي النسائي، وقد عني فيه بصيغ ونصوص في المعاملات، كما عني برواية أحاديث الاستعاذات والأدعية التي تقال في الصلاة. وبجانب هذه الصحاح الستة ألفت كتب أحاديث مختلفة في العصر، كما ألفت كتب مختلفة في الرجال أي رواة الحديثة، من أهمها تاريخ البخاري الذي أشرنا إليه، ويلحقه في الأهمية كتاب التاريخ الكبير لأبي بكر أحمد ابن أبي خيثمة زهير بن حرب تلميذ ابن حنبل المتوفى سنة ٢٧٩ وفيه تحدث عن تعديل الرواة وتجريحهم. وعنيت البيئات الشيعية بأن يكون لها حظ في الاهتمام بالحديث، ومن أهم الكتب التي صنفتها كتاب جامع لأحاديث الإمامين: جعفر الصادق وموسى الكاظم، جمعه أبو العباس عبد الله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع الحميري القمي في أواخر القرن الثالث الهجري. وواضح من ذلك كله مدى النشاط الذي نهض به المحدثون في تأليف كتب الحديثة لهذا العصر، ويكفي أنه ألفت فيه كتب الصحاح الستة التي شغلت المحدثين بالتعليق والشرح والتفسير طوال العصور الماضية.

وكان هذا العصر متمماً للعصر العباسي الأول في نشاط الدراسات الفقهية والتتشريعية، وقد رأينا هناك كيف أن المذاهب الفقهية الأربعة تكونت نهائياً، وظل الاجتهاد نشيطاً، فالفقهاء يجتهدون ويتناظرون ويختلفون ويكثرون من التآليف والمصنفات، وتظهر مذاهب ثانوية لا يكتب لها البقاء، سوى مذهب داود الظاهري، ولكن ظهورها يحمل الدلالة الواضحة على حرية الاجتهاد الفقهي حينئذ وأن أبوابه كانت مفتوحة على مصاريعها. وكان طبيعياً أن يصبح لكل مذهب مجموعة كبيرة من أساتذته وشيوخه يذيعونه في العالم الإسلامي، ومن أهمهم في المذهب الحنفي أبو بكر أحمد[٣] بن عمر الشيباني الخصاف المتوفى سنة ٢٦١ وله كتاب أحكام الوقف وهو منشور بالقاهرة وكتاب الحيل والمخارج في الفقه، وهو منشور في هانوفر والقاهرة. ولا يقل عن أهمية في هذا المذهب أبو جعفر أحمد[٤] بن محمد بن سلامة الحجري الطحاوي المتوفى سنة

---

[١] أنظر تذكرة الحفاظ ١٨٧//٢ والتهذيب لابن حجر ٣٨٧/٩ وميزان الاعتدال ١١٧//٣ والأنساب للسمعاني الورقة ١٠٦.

[٢] أنظره في تذكرة الحفاظ ٢٧٦/٢ والتهذيب لابن حجر ٣٦/١ ومرآة الجنان لليافعي ٢٤٠/٢ وشذرات الذهب ٢٣٩/٢ والسبكي ١٤/٣.

[٣] أنظر في الخصاف الجواهر المضية لابن أبي الوفاء ٨٧/١ والفوائد البهية الكنوى ١٧.

[٤] راجعه في الجواهر المضية ١٠٢/١ وتذكرة الحفاظ الذهبي ٢٩/٣ والأنساب للسمعاني ١٥٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥٤٢/٢ والنجوم الزاهرة ٢٣٩/٣.

٣٢١ وقد انتهت إليه بمصر رياسة أصحاب أبي حنيفة، وهو الذي نشر بها المذهب وعمل على إذاعته" وله معاني الآثار، وهو منشور في جزأين بمدينة لكنو وكتاب مشكل الآثار وهو مشهور بحيدر آباد، ولا تزال له كتب كثيرة غير منشورة أحصاها بروكلمان. وقد حمل المذهب المالكي عن مؤسسة مالك بن أنس كثيرون في مصر والمغرب والأندلس ولمع من فقهاء المذهب في هذا العصر عبد السلام[١] بن سعيد بن حبيب التنوخي المشهور باسم سحنون القيرواني المتوفى سنة ٢٤٠ وهو الذي نشر المذهب في المغرب ودفعه إلى أن يشيع في جميع أرجائها، وله فيه مصنفه الذي ظل اسمه يدوي هناك منذ ظهوره، وهو المدونة الكبرى التي لا تزال تتخذ المرجع الأساسي بتلك الديار لتعليم الفقه المالكي وتدريسه، وقد نشرت بالقاهرة من قديم، ونشرت لها شروح مختلفة. وقد خلف الشافعي وعمل على نشر مذهبه وعني بالتصنيف فيه كثيرون في مقدمتهم تلاميذه المصريون: البويطي والربيع المرادي، وأهم منهما المزني[٢] أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ ناصر المذهب وبدرسمائه كما يقول السبكي، وله مختصر من علم الإمام النفيس محمد بن إدريس ظل الشافعية يتدارسونه طويلاً، وفيه يقول أبو العباس أحمد بن سريج المتوفى سنة ٣٠٦ أكبر أئمة المذهب لأواخر القرن الثالث الهجري الذي انتشر منه في أكثر الآفاق[٣]:

لصيق فؤادي منذ عشرين حجةً ... وصيقل ذهني والمفرج عن همي

جموع لأصناف العلوم بأسرها ... فأخلق به أن لا يفارقه كمي

وطبع هذا المختصر على هامش كتاب الأم للشافعي. وكان أحمد بن حنبل قد تتلمذ للشافعي ثم استقل بمذهب فقهي خاص اعتمد فيه على الحديث النبوي، وبذلك عد مذهبه ممثلاً لأهل السنة، ومن أهم أتباعه في هذا العصر أبو القاسم عمر[٤] بن الحسين بن عبد الله الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤، وله في الفقه الحنبلي كتاب المختصر في الفقه، طبع في القاهرة بشرح عبد الله بن أحمد ابن قدامة أكبر أئمة المذهب الحنبلي في القرن السابع الهجري.

---

[١] أنظره في الديباج المذهب لابن فرحون (طبع فاس) ١٧١ وابن خلكان ومرآة الجنان لليافعي ١٥١/٢.

[٢] أنظره في وفيات الأعيان وشذرات الذهب ١٤٨/٢ والأنساب للسمعاني ٥٢٧ ومرآة الجنان لليافعي ١٧٧/٢ والنجوم الزاهرة ٣٩/٣ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٣/٢.

[٣] السبكي ٣١/٣.

[٤] طبقات الحنابلة لابن أبي يعلي ٣٣١ والأنساب للسمعاني ١٩٥ وتاريخ بغداد ٢٣٤/١١ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣.

obeikandl.com

وهيأ الاجتهاد الفقهي الواسع في هذا العصر لظهور مذاهب فقهية وراء المذاهب الأربعة الكبرى، برز منها خاصة المذهب الظاهري نسبة على أبي سليمان[١] داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري المتوفى سنة ٢٧٠، وكان يتبع في أول أمره مذهب الشافعي ويتعصب له، ثم أسس له مذهباً عرف بمذهب أهل الظاهر، وهو مذهب يقوم على إنكار القياس في الدين ومسائل التشريع، لأن القياس عقلي والدين إلهي، ويكفي لبيان الأحكام ما في القرآن والحديثة من عموم. ومن أجل ذلك كان يرى الوقوف عند ظاهر الكتاب والسنة وعدم فتح الأبواب للقياس والآراء التي تنبثق عنه. وفي رأينا أن ظهور هذا المذهب يعد إشارة واضحة في العصر إلى بروز نزعة محافظة قوية في دراسات الفقه وفي الأدب والشعر، وقد كتب له أن يذيع في الأندلس والمغرب فيما بعد، وأن يتحمس له فقهاء نابهون مثل ابن حزم بل أحياناً دول مثل دولة الموحدين في الأندلس والمغرب.

---

[١] أنظره في تاريخ بغداد ٣٦٩/٨ والسبكي ٢٨٤/٢ واليافعي ١٨٤/٢ والنجوم الزاهرة ٤٧/٣ وشذرات الذهب ١٥٨/٢.

obeikandl.com

٥

الاعتزال وانبثاق الأشعري

مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف نشأ الاعتزال ونما وازدهر وكثر أعلامه وأتباعه، وكيف أحالوا البصرة وبغداد إلى ساحتين كبيرتين للجدال في المسائل العقيدية والدفاع عن الدين الحنيف وكل ما اتصل به من توحيد الله وحقائق النبوة والثواب والعقاب في الآخرة، ولم يكونوا يوجهون دفاعهم إلى أصحاب الملل والنحل الأخرى فحسب، بل أيضاً إلى المجبرة والمرجئة والشيعة والغالية، ونازلوا الدهريين والمانويين الثنويين نزالاً عنيفاً. وكانت مناظراتهم لهذه الفرق لا تتوقف يوماً، والناس يتجمعون حولهم في المساجد يسمعون ويتفرجون، وقد جذبوا الشباب إليهم، بحيث كانت حلقاتهم أكبر الحلقات وأوفرها سامعين. وقد عكفوا على الثقافات والمعارف الأجنبية يتزودون بها، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق، وسرعان ما كانوا لأنفسهم مذهباً ضخماً تميز بأصوله الخمسة المعروفة، وهي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلتي المؤمن والكافر. وأخذوا على هدى ثقافتهم يتعمقون في مسائل الطبيعة وما وراء الطبيعة، وغذا أئمتهم ينفذون إلى آراء جديدة كل الجدة في البحوث الطبيعية والفلسفية والإلهية، بل إن منهم من استطاع أن يكون له فلسفة مستقلة، فتلك فلسفة واصلية نسبة على واصل بن عطاء المتوفى لآخر العصر الأموي، وهذه فلسفة بشرية نسبة على بشر بن المعتمر أو ثمامية نسبة على ثمامة بن أشرس أو هذيلية نسبة إلى أبي الهذيل أو نظامية نسبة إلى النظام. وعلى هذا النحو لم يتكون للاعتزال أئمة أو باحثون ممتازون فقط بل تكون له هؤلاء الفلاسفة في العصر العباسي الأول، وهو العصر الذي بلغ فيه الاعتزال الذروة المأمولة، حتى لتصبح له السيطرة التامة على الحكم في عهود المأمون والمعتصم والواثق، فإذا أئمته يحملون علماء الدين كرهاً على القول بخلق القرآن، وتنشب المحنة المعروفة، ويمتحن كثير من الفقهاء ويسامون العذاب. وكان ذلك نذير شؤم، إذا أسخطوا الفقهاء والمحدثين والناس عليهم، وسرعان ما دالت دولتهم مع افتتاح العصر العباسي الثاني، إذ ولي المتوكل الخلافة ولم يلبث أن أعلن إبطال القول بخلق القرآن، واستقدم المحدثين إلى سامراء عاصمته وأجزل عطاياهم وأمرهم بالجلوس إلى الناس وإظهار السنة والأخذ بالتسليم. وكان من أثر ذلك أن اندحر المعتزلة على حين انتصر الفقهاء والمحدثون، وأخذ كثير منهم يجرحون المعتزلة، وقوى نفوذهم وسلطانهم على العامة، ولم يستطع المعتزلة بعد ذلك أن يستردوا سلطانهم.

على أن الاعتزال استمر في نشاطه، وخاصة أن كثيرين من تلاميذ فلاسفته الذين سميناهم عاشوا في العصر العباسي الثاني، ومنهم من طالت حياتهم فيه، فكان طبيعياً أن يظل له جهابذته وأن تظل له حلقاته في البصرة وبغداد، بل إن كثيرين من المعتزلة الجدد في العصر استطاعوا أن يكونوا لهم فلسفة أو كما اصطلح القدماء فرقة نسبت إليهم، وفي مقدمتهم الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ وهو تلميذ النظام، وكان واسع الثقافة إذ لم يترك ثقافة أجنبية إلا أطلع عليها وخاصة الثقافة اليونانية وما يتصل بها من الفلسفة الطبيعية والمنطق، وقد ظل يدافع عن المعتزلة ويجادل خصومهم جدالاً عنيفاً، وله في ذلك كتاب مستقل سماه "فضيلة المعتزلة". ويقول ابن المرتضي في كتابه طبقات المعتزلة: "إنه أغرى بشيئين: كون المعارف ضرورية والكلام على الرافضة[١]" والمراد الرد على الرافضة من الشيعة وبيان ما في اعتقاداتهم من فساد. ويفسر الأشعري قوله بأن المعارف ضرورية بأنه كان يذهب إلى أن "ما بعد الإرادة فهو للإنسان بطبعه وليس باختيار، وليس يقع منه فعل باختيار سوى الإرادة[٢]" ويزيد الشهرستاني ذلك بياناً بقوله: "انفرد الجاحظ بمسائل منها قوله إن المعارف كلها ضرورية طباع وليس شيء من ذلك من أفعال العباد، وليس للعبد كسب سوى الإرادة وتحصل أفعاله منه طباعاً".[٣] ويقول البغدادي في الفرق بين الفرق. "مما نسب إلى الجاحظ قوله: "إن المعارف كلها طباع، وهي مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم، ووافق ثمامة ابن الأشرس في أن لا فعل للعباد إلا الإرادة، وأن سائر الأفعال تنسب إلى العباد على معنى أنها وقعت منها طباعاً وأنها وجبت بإرادتهم[٤]".. ولعل في ذلك كله ما يوضح رأيه في أن المعارف ضرورية طباع، يريد أنها تحصل بلا اكتساب، إنما كل ما هناك أن الإنسان يوجه إليها إرادته، فتحدث اضطراراً وطبيعة ومثلها أفعال الإنسان تحدث طبيعة واضطراراً ما دامت قد اتجهت إليها إرادته، فالمدار على الإرادة، وما يحدث بعدها فناشئ عنها، ويقول الشهرستاني إنه:"كان يقول بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة، وقال باستحالة عدم الجواهر فالأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز أن يفنى"، ويقول أحمد أمين: "وهي عبارة على إيجازها تدل على معان عديدة فهو يقرر فيها القوانين الطبيعية للأشياء، فللماء وللنار ولأشياء هذا العالم كلها قوانين طبيعية لا تتخلف، وهو يقرر المبدأ الهام الحديث وهو أن المادة لا تنعدم، فالجوهر عنده لا يفنى إنما تتغير الأعراض فجوهر المادة ثابت لا ينعدم،وإنما يتحول ويتغير فيكون مرة ماء ومرة زرعاً ومرة معدناً ومرة خشباً، وهذه كلها أعراض

---

[١] أنظر كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضي (بع بيروت) ص٦٧.

[٢] مقالات الإسلاميين ٤٠٧/٢.

[٣] الملل والنحل للشهرستاني (طبع مؤسسة الحلبي) ٧٥/١.

[٤] الفرق بين الفرق للبغدادي ص١٧٥.

طارئة على المادة، وإن شئت فقل: إنها طارئة على العناصر الأولية التي تتكون منها المواد[١]".
وذكر الشهرستاني تكملة لنظرية الجاحظ في الطباع أنه كان يقول في أهل النار "إنهم لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون إلى طبيعتها"، وأنه كان يقول: النار في الآخرة تجذب أهلها إلى نفسها بدون أن يدخل أحد فيها، فهي التي تدخلهم نفسها وتخلدهم فيها. وقد رد أبو الحسين الخياط على نسبة هذا القول إلى الجاحظ، وقال إنه مما نسبه إليه ابن الراوندي الكذاب، وقال إنه كذب عليه أيضاً في نسبته إليه إحالة فناء الأجساد وعدمها[٢]. ولعل في ذلك ما ينبهنا إلى أنه يجب الاحتياط في التعرف على آراء المعتزلة وأنه يحسن استقاؤها من كتبهم الخاصة.

وعاصر الجاحظ وتلاه كثير من المعتزلة في البصرة وبغداد، وهم يكونون في هذا العصر الطبقات السابعة والثامنة والتاسعة من كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى، ومن أهمهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن اسحق الشحام من أصحاب أبي الهذيل، وإليه انتهت رياسة المعتزلة في البصرة في وقته[٣]، وكان يعاصره في بغداد جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب، وكانا ورعين زاهدين، ويسوق أبو الحسين الخياط في كتابه الانتصار بعض آرائهما، ويذكر أن أولهما صنف كتباً كثيرة في الفقه، وأن له كتاباً في الرد على أصحاب الرأي والقياس في الشريعة[٤].

ومن تلامذة جعفر بن مبشر أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذي عاش حتى نهاية القرن الثالث الهجري.وكان من أكثر المعتزلة علماً بأقوالهم واختلافاتهم، وكان فقيهاً مثل أستاذه ومحدثاً مرموقاً.وله كتب كثيرة في الرد على ابن الراوندي، نشر منها– كما مر بنا في غير هذا الموضع– كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، وهو يدل بوضوح على سعة معرفته بآراء المعتزلة، وكان ابن الراوندي نسب إليهم آراء كثيرة غير صحيحة، فيزفها وبين بطلانها، ومن عجب أن نرى البغدادي في الفرق بين الفرق والشهرستاني في الملل والنحل ينسبان إليهم بعض هذه الآراء، كما يتضح من المقارنة بين ما جاء فيهما عن الجاحظ مثلا وما جاء في كتاب الانتصار. ويمكن من هذا الكتاب استخلاص كثير من آراء الخياط مؤلفه، ومن آرائه المهمة ذهابه إلى أن المعدوم يعد شيئاً، محتجاً بأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه، وبذلك عد الجوهر جوهراً في العدم والعرض عرضاً في العدم، وأطلق على المعدوم لفظ الثبوت[٥].

---

[١] ضحى الإسلام (طبع ونشر مكتبة النهضة – الطبعة السابعة) ١٣٥/٣.

[٢] الانتصار للخياط ص ٢١–٢٢.

[٣] طبقات المعتزلة ص ٧١.

[٤] الانتصار ص ٨١.

[٥] الشهرستاني ٧٧/١.

obeikandi.com

وأنبه من هؤلاء المعتزلة جميعاً وأشهر أبو علي[١] محمد بن عبد الوهاب الجبائي المتوفى سنة ٣٠٣ وهو تلميذ أبي يعقوب الشحام البصري، وهو وابنه أبو هاشم من معتزلة البصرة. ولعل خير ما يصور آراءه كتاب مقالات الإسلاميين للأشعري تلميذه وفيه أنه كان يرى أن الله سبحانه لم يزل عالماً بالأشياء والجواهر والأعراض وأن الأشياء تعلم أشياء قبل كونها وتسمى أشياء قبل كونها وكذلك الجواهر والحركات والسكون والألوان والطعوم والأراييح والإرادات[٢]. وكأنه في موقفه إزاء الأشياء يلتقي بالخياط في رأيه الذي مر بنا آنفاً، وقد حاول بعض خصومهما أن يلزمهما بأنهما يقولان بأزلية الأشياء وقدم الأجسام والجواهر والأعراض، ومن المحقق أنهما ما لم يقولا بذلك إنما يريدان أزلية العلم الإلهي. ومن تتمة رأي أبي على أنه كان يرى أن ما علم الله أنه يكون لا بد أن يكون. وكان يرى أن من الذنوب صغائر وكبائر،وأن الصغائر تستحق غفرانها باجتناب الجبائر، وأن الكبائر تحبط الثواب على الإيمان، وكان يذهب إلى أن العزم على الكبيرة كبيرة والعزم على الكفر كفر[٣]. وكان يقول إن الله خير بما فعل من الخير، وقال إن الأمراض والأسقام ليست بشر في الحقيقة وإنما هي شر في المجاز، وكذلك كان قوله في جهنم إذ كان يقول إن عذابها ليس بخير ولا بشر في الحقيقة، لأن الخير هو النعمة وما للإنسان فيه منفعة، والشر هو العبث والفساد وعذاب جهنم ليس بصلاح ولا بفساد وليس برحمة ولا منفعة، ولكنه عدل وحكمة[٤]. وكان يرى أن معنى قوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) إنما هو على سبيل التوسع، ومعناه أنه هادى أهل السموات والأرض،وأنهم يهتدون به كما يهتدون بالنور والضياء وقال إنه لا يجوز أن نسميه نوراً على الحقيقة إذ هو ليس من جنس الأنوار[٥]. وكان يجل العقل إجلالا شديداً، وهو إجلال كان يتابع فيه المعتزلة، حتى ليمكن أن نسميهم جميعاً باسم العقليين، غير أنه مضى في الشط إلى نهايته "فاثبت– وتابعه ابنه أبو هاشم– شريعة عقلية، ورد الشريعة النبوية إلى مقدرات الأحكام ومؤقتات الطاعات التي لا يتطرق إليها عقل ولا

---

[١] أنظر في ترجمة أبي على الجبائي وآرائه طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص ٨٠ ومقالات الإسلاميين للأشعري في مواضع مختلفة والشهرستاني ٨٧/١ ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن بدوي، الجزء الخاص بالمعتزلة والأشاعرة ص ٢٨٠ وما بعدها.

[٢] مقالات الإسلاميين ٢٢٢/١.

[٣] مقالات الإسلاميين ٣٠٥/١.

[٤] مقالات الإسلاميين ١٩٥/٢.

[٥] مقالات الإسلاميين ١٩٢//٢.

يهتدي إليها فكر[١]". ويقال إن تلاميذه حرروا ما أملاه فوجدوه مائة وخمسين ألف ورقة، ولم يبق من مصنفاته الكثيرة سوى تفسيره.

وأبو هاشم[٢] الجبائي عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٢١ لا يقل عن أبيه أبي على الجبائي شهرة، بل إنه يتقدمه في الشهرة وذيوع الاسم، بل لقد تحول المعتزلة في القرن الرابع الهجري إلى مذهبه وآرائه، مؤمنين بأنه لم يبلغ غيره في الكلام مبلغه. وأبوه هو أستاذه الذي خرجه في المباحث الاعتزالية، وهو يتفق معه في كثير من آرائه، وينفرد عنه في آراء كثيرة أيضاً، يقول ابن المرتضي: "وقد استنكر بعض الناس خلافه على أبيه، وليست مخالفة التابع للمتبوع في دقيق الفروع بمستنكر، وفي ذلك يقول أبو الحسن الكرخي:

يقولون بين أبي هاشم ... وبين أبيه خلاف كثير

فقلت وهل ذاك من ضائر ... وهل كان ذلك مما يضير

فخلوا عن الشيخ لا تعرضوا ... لبحر تضايق عنه البحور

وإن أبا هاشم تلوه ... إلى حيث دار أبوه يدور

ولكن جرى من لطيف الكلام ... كلام خفى وعلم غزير

فهو قد دار مع أبيه في آراء كثيرة، واستقل عنه في أخرى استقلالا، لا يضيره، فحبه أباه وتقديره شيء، وحبه الحقيقي الاعتزالية وتقديره إياها شيء آخر. وأدرك الشهرستاني ما بين الأب والابن من الاتفاق، فجمع بينهما في فصل واحد، عارضاً فيه أولاً وجوه اتفاقهما، ثم ذكر ما خالف فيه أبو هاشم أباه. ولعل أهم نظرية عرف بها هي نظرية الأحوال، وهي نظرية تتصل بصفات الله الأزلية، ومعروف أن المعتزلة نفوها من قديم ذاهبين إلى أنها هي عين الذات الإلهية، فالله عالم بذاته، أي علمه هو ذاته، وهكذا بقية الصفات، وقال أبو علي الجبائي إن الله عالم لذاته وقادر لذاته، وهلم جرا، وتنبه أبو هاشم إلى فساد قول أبيه لما يترتب عليه من جعل الله علة لصفاته[٣]. فحاول النفوذ إلى رأي دقيق وهداه عقله إلى أن الصفات أحوال تدرك بها الذات على نحو إدراكها للمعاني الكلية، ويوضح ذلك الشهرستاني قائلاً: "عند أبي هشام هو عالم لذاته أي ذو حالة هي صفة معلومة وراء كونه ذاتاً موجوداً إنما تعلم الصفة على الذات لا

---

[١] الشهرستاني ٨١/١.

[٢] أنظر في ترجمة أبي هاشم تاريخ بغداد ٥٥/١١ وطبقات المعتزلة ص ٩٤ والفهرست ص ٢٦١ والملل والنحل للشهرستاني ٨٧/١ وما بعدها والفرق بين الفرق للبغدادي (طبعة محي الدين عبد الحميد) ص١٨٤ ومذاهب الإسلاميين لبدوي ٣٣٠/١.

[٣] أصول الدين للبغدادي (طبع استانبول) ص٩٢.

بانفرادها، فأثبت أحوالاً هي صفات لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا مجهولة، أي هي على حيالها لا تعرف كذلك بل مع الذات، قال: والعقل يدرك فرقاً ضرورياً بين معرفة الشيء مطلقاً وبين معرفته على صفة، فليس من عرف الذات عرف كونه عالماً ولا من عرف الجوهر عرف كونه متحيزاً قابلاً للعرض[١]". وهي نظرية دقيقة، إذ حاول بها أبو هاشم أن يلغي ما قد يظن من نفي المعتزلة: أبي الهذيل العلاف وأضرابه للصفات الأزلية عن الله أنه ليس لها وجود مع أنها مكررة مرددة في الذكر الحكيم، فقد ذهب على أنها في حال وسطى لا موجودة ولا معدومة، وأنها تدر كما تدرك الكليات بدون أن تكون هي نفسها عين الذات، وكأنه خشى أن يؤول ذلك عند بعض الناس إلى أن تكون جواهر أو أقانيم، فأثبت أنها أحوال، وفي الوقت نفسه كان يرد على زميله الأشعري كما سيلي عما قليل في فكرته القائلة بأن الصفات الإلهية على الذات. ومن آراء هاشم الطريفة تعليله للعقاب الأخروي إذ يقول:"إن القديم تعالى خلق فينا شهوة القبيح ونفرة الحسن، فلا بد أن يكون في مقابلته من العقوبة ما يزجرنا عن الإقدام على المقبحات، ويرغبنا في الإتيان بالواجبات، وإلا كان يكون المكلف مغري بالقبح، والإغراء بالقبح لا يجوز على الله تعالى[٢]"، وكأنه تنبه بوضوح إلى أن الغرض من العقاب التربية وأن يحذر الإنسان عواقب عمله الوخيم حتى ينتهي عنه. وكأن أبوه يرى أن التوبة عن الصغائر تجب سمعاً وعقلاً، أما أبو هاشم فكان يرى أنها لا تجب إلا سمعاً، لأن التوبة– في رأيه– إنما تجب لدفع الضرر عن النفس ولا ضرر في الصغيرة فلا التوبة تجب عنها[٣]. وكان أبوه يرى أن التوبة عن بعض الكبائر مع الإصرار على بعض آخر تصح، أما أبو هاشم فكان يرى أنه لا تصح التوبة عن بعض الكبائر دون بعض، فلا بد أن يتوب المذنب من جميع الكبائر توبة نصوحاً[٤].

وتلميذ ثان لأبي على الجبائي انفصل عنه بأكثر مما انفصل ابنه أبو هاشم، بل لقد استطاع أن يقيم مذهباً جديداً لا يعارض به أستاذه فحسب، بل يعارض به المعتزلة جميعاً، إذ أقامه على التوسط بين آرائهم وآراء أهل السنة، حتى لقد عد هو نفسه مذهب أهل السنة، ونقصد أبا الحسن[٥] علي بن إسماعيل، سليل أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل، المتوفى سنة ٣٢٤،

---

[١] الشهرستاني ٨٢/١.

[٢] شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص٦٢٠.

[٣] المصدر نفسه ص ٧٩٢.

[٤] المصدر نفسه ص ٧٩٤.

[٥] أنظر في ترجمة الأشعري تاريخ بغداد ٣٤٦//١١ والفهرست ص ٢٧١ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ٣٥٣/١ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكي ٣٤٧/٣ والنجوم الزاهرة ٣٥٩/٣ ومذاهب الإسلاميين لبدوي ٤٨٧/١.

وقد ظل على مذهب المعتزلة أربعين عاماً كان يختلف فيها على حلقات أستاذه أبي علي الجبائي، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن وعدم رؤية الله بالأبصار وأن الإنسان يفعل أعماله بقدرته وإرادته الخالصة، وظل يلقي محاضراته بالبصرة والناس يقبلون عليه إلى أن بدا له أن يتركها إلى بغداد وظل بها إلى وفاته.

وقد نشرت له كتب مختلفة، منها مقالات الإسلاميين التي رجعنا إليها مراراً، ومنها رسالته: الإبانة عن أصول الديانة واللمع، وهما يصوران مذهبه تصويراً دقيقاً، وهو مذهب كما قدمنا يوازن بين آراء أهل السنة، وكل مسألة تذكر فيها الأدلة العقلية والأدلة السمعية من الكتاب والسنة، ونضرب مثلاً لذلك البراهين على وجود الله، وقد اشتقها من القرآن اشتقاقاً على هذا النمط الذي ساقه الشهرستاني إذ يقول: قال الأشعري: الإنسان إذا فكر في خلقته من أي شيء ابتدأ، وكيف دار في أطوار الخلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الخلقة، وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقه، ويبلغه من درجة إلى درجة ويرقاه من نقص إلى كمال- عرف بالضرورة أن له صانعاً قادراً عالماً مريداً، إذ لا يتصور صدور هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الاختيار في الفطرة وتبين آثار الإحكام والإتقان في الخلقة[١]"، وواضح أنه يستلهم في هذا البرهان ما جاء فيه من أطوار خلق الإنسان وتحوله من نطفة إلى علقة فمضغة فعظام فكسوة من لحم، ثم أطواره في حياته. وإذا عرض مثلاً لبيان أن الله لا يشبهه شيء أدلى بالبرهان العقلي ثم أتبعه بالبرهان السمعي من مثل قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). وعلى هذه الشاكلة دائماً يسوق الأشعري مع الأدلة العقلية الأدلة السمعية. وقلنا آنفاً إن مذهبه وسط بين مذهبي المعتزلة والمحدثين، وقد تابع الأولين في تنزيه الذات العلية عن التشبيه وكل ما يتعلق بالتجسيد، وأخذ بقول المحدثين في أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة، مستدلاً على ذلك بأدلة سمعية أوضحها في رسالته "الإبانة" إيضاحاً تاماً وبأدلة أخرى عقلية أوضحها في "اللمع". وتوسط بين المعتزلة والجبرية في أفعال الإنسان وخالقها، بل الإنسان هو الذي يخلق أفعاله، وتوسط الأشعري فقال إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وهي للإنسان كسباً وإرادة فهو يريدها والله يخلقها فيه[٢]. وكان يرى أن صفات الله أزلية قائمة بذاته، فهي ليست عين الذات الإلهية كما يقول أكثر المعتزلة ولا هي أحوال كما قال أبو هاشم الجبائي بل هي زائدة على الذات قائمة بها[٣]. وحاول التوفيق في مسألة خلق القرآن بين المعتزلة والمحدثين من أمثال ابن حنبل أي بين القولين القائلين بأن القرآن حادث أو هو قديم، فقال إن "العبارات والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى

---

[١] الشهرستاني ٩٤/١.

[٢] الشهرستاني ٩٥/١.

[٣] اللمع ص٤٥ وما بعدها.

الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلي، والدلالة مخلوقة محدثة، والمدلول قديم أزلي[١]"، وبعبارة أخرى كان يرى أن القرآن وكلام الله القائم بذاته قديم، أما الكتاب الذي بين أيدينا والذي نزل به الوحي في زمن من الأزمان فحادث. وأنزل العقل من مكانته القدسية عند المعتزلة وخاصة في الإلهيات، إذ قال إن معرفة الله وشئونه الإلهية ليس سبيلها ولا أداتها العقل، بل الوحي والشرع ونصوص القرآن والسنة، فالعقل عنده لا يوجب شيئاً ولا يقتضي تحسيناً ولا تقبيحاً، ولا يوجب على الله رعاية لمصالح العباد، والواجبات كلها واجبات بالسمع، وقد تحصل معرفة بالعقل، ولكنها لا تجب إلا عن طريق السمع[٢].

) الشهرستاني ٩٦/١. (١

[٢] الشهرستاني ١٠١/١.

obeikandl.com